روايات إحلام

العرّافة

www.rewity.com/vp/

بلا عنوان

١ ـ جلست والخوف بعينيها . . .

نقلت كوانتين بورنيت برعب بصرها من غويا المغمضة العينين إلى وجه أوتو رايدلي المتجهم المتجعد:

ـ أنا؟ تريدان أن أكون قارئة البخت؟ العرّافة؟

مال أوتو إلى الأمام في كرسيه، وقال بلهفة:

ـ ليست قراءة الطالع بأمر صعب. . فقد تعلمت غويا بسرعة.

ربتت غويا على ركبة كوانتين المغطاة بسروال من الجينز:

ـ وأنت ذكية. . حبّي. . لقد نجحت حتى الآن.

ـ لكنني. .

حاولت كوانتين إيجاد الكلمات المناسبة لترفض طلب الزوجين رايدلي، ولكن لم يخطر ببالها ما هو مناسب. . لقد كانا في غاية اللطف معها منذ اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى السيرك لإتمام مهمة حرّة لمجلة، فهي تريد أن ترسم وتكتب عن حياة السيرك. ضمّاها تحت جناحهما واهتما بها وحمياها من تحرشات العاملين العدائيين، وسعيا لتجري مقابلاتها الصحفية مع أهل السيرك الحقيقيين.

كان أوتو رجلاً صغير الجسم ولكن وظيفته كبيرة. . كان رئيس العاملين في إقامة المخيم، والمسؤول عن إقامة السرداق الكبير في كل بلدة يحط فيها السيرك رحاله. . أما غويا فهي غويانا رايدلي، امرأة قصيرة بدينة ذات شعر أحمر مخضب بالحنّاء وطاقم أسنان يطقطق دائماً. . ولكن اسمها في عالم الخيال في السيرك مدام أزميرالد الغامضة، العرّافة القادمة من الشرق الأقصى التي ترتدي ثوباً أسود متهدلاً وتضع عمّة حمراء،

وريشة طاووس غريبة في المقدمة.

سألت كوانتين:

ـ أليس هناك دواء ما لتتناوليه؟

ودفعت خصلة شعر من شعرها الأسود عن جبهتها إلى العقصة غير المرتبة على مؤخرة عنقها.

ضغطت غويا قماشاً مبللاً بارداً على جبينها:

ـ أنا حلم بائع الأدوية.. أليس كذلك أوتو؟

هز أوتو رأسه موافقاً، فتطاير الشعر الأبيض المحيط بالجزء الأقرع من رأسه في الهواء، وقال:

ـ أخذتها إلى طبيب عندما كنا في لويزيانا فقال إنها تعاني من آلام في الرأس «الشقيقة» كما سماها. وقال أن لا شيء قادر على شفائها من الألم.

منذ دخلت مقطورة الزوجين رايدلي، ورأت غويا مستلقية في العربة، ووجهها الأحمر عادة شاحب وهادىء وعيناها مغمضتان لحجب النور عنهما، عرفت كوانتين أن المرأة العجوز مصابة بالشقيقة. ومع أن كوانتين لم تصب قط بالصداع النصفي، إلاّ أنها تذكر جيداً أمها وهي ممددة على السرير وقطعة قماش مبللة على رأسها والنوافذ الخشبية مقفلة.. لقد فشل الطب حتى الآن في تخفيف آلام الشقيقة.. ولهذا يظلّ الألم ليتم دورته قبل أن يختفي حتى يظهر مرة أخرى.

أشفقت كوانتين على غويا، ولكن فكرة ارتداء الزيّ الغريب ولعب دور العرّافة أمر مخيف.. عرفت أن ثمة أشخاصاً سيمرحون كثيراً إن حلوا مكان مدام أزميرالد.. لكنها ليست من هذا الصنف.. إنها خجولة متحفظة، فلو تصرفت كأنها تستطيع قراءة حظوظهم في كرة من بلور لارتبط لسانها، ولتوردت خجلاً ولبدت حمقاء كاملة..

سألتها آملة:

ـ ألا يمكن أن تأخذي الليلة استراحة من العمل؟

عرفت الرد مسبقاً: على الاستعراض أن يستمر.. هذا هو الشعار

الذي يعيش به كل لاعبي السيرك، والمتوقع أن يكونوا على استعداد ساعة العرض.

مرر أوتو يده ووضعها على رأسه ورد نيابة عن غويا:

ـ لن يقبل المعلم الكبير بهذا.

المعلم الكبير هو هيوز ليتل الذي يملك ويدير السيرك بيد من حديد، والذي يملك طابعاً نارياً حتى أطلق عليه سراً اسم «فايري هيوز» أي هيوز الناري.. تعرف كوانتين أن فكرة خسارة المال الذي تجلبه العرّافة لن تعجبه أبداً.. فمدام أزميرالد الغامضة تجتذب الكثير من الزبائن.

قالت غويا بصوت ضعيف: «لهذا فكرت أن تحلي مكاني».

ـ بالتأكيد هناك آخرون..

هز أوتو رأسه نفياً.

ـ أظن أنا وغويا أنك ستكونين ممتازة.

ابتسمت غويا لها:

ـ نحن لا نطلق عليك لقب الرائعة بلا سبب حي.

انتفضت كوانتين داخلياً.. فلكل من في السيرك اسم مستعار، وكأنما بانضمامهم إلى حياة الاستعراض تخلوا عن حياتهم الحقيقية.. اكتسب أوتو اسمه لأنه المسؤول عن إقامة الخيمة الكبيرة، وكان يقوم بعمله كآلة.. أما غويانا فهي الأم لكل أعضاء السيرك بدءاً من الطاهية وصولاً إلى المدير العام، ولهذا دللها الجميع باسم غويا.. وأما كوانتين فقد أطلق عليها اسم «الرائعة» منذ اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى السيرك وذلك حين صفّر أحد العاملين صائحاً: «مرحباً أيتها الرائعة!» وكانت وقتذاك تتزجل من سيارة «الثمان» بوجهها البيضاوي الصغير وقسماتها الرقيقة وشعرها الأسود وبعينيها الرماديتين اللتين تلقيان إعجاب الرجال.. ولقد التصق بها الاسم كما يلتصق الصمغ.

أردفت غويا:

ـ أظن أن بإمكانك الاستفادة من التجربة لكتابة المقالة التي تعملين

فسألها اختارت كوانتين طاقمة أن تكون وحيدة؟ .. لكنها استنتجت أن غيابهما بعيدة عن تلك العلاقات التي يأمل بها ماكس بلا شك.

انهمكت.. نظرت إلى البلوزة التي بدأت بطيها، وقررت نسيان أمر ثوب سلايسها في الوقت الحاضر. فكل ما ترغب في فعله هو الاختباء بين صفحات القصة الخيالية الغامضة التي جاءت بها معها.

لكن.. جريمتي قتل وانتحار واحد أمران لا إثارة فيهما إن قورنا مع محنة مواجهة ماكس..

بعد ثلاث ساعات على هذا، كانت كوانتين جالسة في خيمة مدام ازميرالد الصغيرة والكرة الكريستالية أمامها على الطاولة.. في الخارج لوحة كبيرة عليها أحرف حمراء: زوروا مدام أزميرالد الغامضة.. واحصلوا على قراءة طالعكم.. تنجيم أصيل، قراءة الكرة الكريستالية، وقراءة الكف.. تجنبوا الكارثة، واعرفوا من ستتزوجون.

افترضت كوانتين أن الغرض من الجو في الخيمة الصغيرة هو خلق جو غريب شاذ.. الجو في الخارج مظلم ونور شمس العصر ينسلل شيء منه من بين قماش الخيمة السوداء. لم تفعل إضاءة الكرة الكريستالية المستمدة من بطاريتين صغيرتين شيئاً للتخفيف من الجو المكفهر.. لكن الظلمة عملت على إخفاء واقع أن الكرة الكريستالية موضوعة على طاولة مهتزة، وأن قارئة الطالع جالسة على كرسي عادي. وكانت كوانتين قد اكتشفت أن المساء يحمل معه السحر وإشراق حياة السيرك التي تختفي في وضح النهار.

في هذه الليلة استحوذ عليها شعور بالذعر يكاد يدفعها إلى الفرار، أو على الأقل إلى الاختباء تحت الطاولة.

تحت أنامل غوايا الخبيرة وبمساعدة راكبة جياد تدعى زازا، تغيرت كلياً.. لقد جعلتاها ترتدي فستاناً مفتوح الصدر أحمر اللون يبرق «بالترتر» المبهرج.. وكان القماش الشفاف الملتصق قد بدّل من ثناياها النحيلة التي أصبحت أقل بقليل من الشهية.

كانت ترفل بالأطلس المزيّف ويحيط بعنقها العارية طوق ألماسي

عريض وتغطي نصف دزينة من الأساور ذراعها اليسرى من المعصم حتى المرفق، ألبستها غوايا أيضاً قرطاً كبيراً وعدة خواتم حتى كادت تعجز عن طوي يديها.. ومشطت لها زازا شعرها إلى الوراء بجناحي غراب عند الفودين، تاركة طوله ينسدل إلى الوراء في ستارة خفيفة، ووضعت لها توجياً ألماسياً على رأسها. أما الحجر التصفي فيه فكان يتدلى على جبينها.. وطلت شفتيها بلون قرمزي قاتم، وحددت عينيها بكحل أسود، وزادت الماسكارا من كثافة رموشها الكثيفة أصلاً.

سحبت نفساً وهي تتأمل صورتها في المرآة: آه.. يا إلهي!

لكن زازا وغوايا كانتا تنظران إليها برضى.

قالت زازا: «كامل».

وعلقت غوايا من مكانها على الأريكة:

ـ ذو مستوى!

عادت كوانتين تنظر إلى المرآة بعدم تصديق. مستوى! إنها كلمة غير مناسبة لوصفها.. فتركيبة الحلي والزينة الثقيلة والفستان الأحمر المغري، جعلتها تبدو كأميرة من قصص الشرق الخرافية نوشك أن تصبح ملكة.. كان الشبه شديداً، حتى التفتت إلى المرأتين لتخبرهما، ولكنها وجدت نفسها غير قادرة على التلفظ بها.. إذ كانتا راضيتين كل الرضاء عن عملهما بحيث أدركت كوانتين أنها لن تقنعهما أبداً كم تبدو سخيفة.

الآن، وهي جالسة في الخيمة المظلمة، شعرت باندفاع إلى تعليق لائحة تقول فيها «خرجت للعشاء» وإلى السفر حالاً إلى نيويورك بدل انتظار الصباح التالي. لكن قبل أن تقوم بأية حركة، انفتحت الستائر ودخل ولدان صغيران. لا شك أن رؤية أزميرالد الغامضة أصابتهما بالخرس.. لأنهما وقفا جامدين مصدومين، يحدقان إليها بعينين متسعتين.

تنحنحت كوانتين، وكبحت ضحكة منها، وقالت بصوت غريب أجش:

ـ ألن تدخلا؟

بعدما أنهت التعامل مع ثلاثة عشر زبوناً، شعرت بالاسترخاء كثيراً، وبدأت الاستمتاع بعملها. إن سر قراءة الطالع الناجح هو في تقويم الزبائن بسرعة، ثم القول لهم ما يريدون سماعه. أم حامل في الخامسة والعشرين تنهدت بصوت مسموع حين كشفت الكرة أن طفلها القادم سيكون هادئاً محبوباً وينام الليل كله. رجل ضخم يرتدي الجينز ويضع وشماً على يديه، ابتسم لها حين لاحقت خط الحياة في كفه وتكهنت له بعطلة طويلة ممتدة. أما الأولاد فكانوا أسهل من الكبار. فقد هددتهم بالويل والثبور بسبب سوء تصرفهم في الماضي ووعدتهم بمكافآت ثمينة إن أحسنوا التصرف، وقد جعلتها الرهبة والمداهنة على وجوههم تشعر وكأنها فعلاً المدام أزمير الد الغامضة.

عندما خف العمل قليلاً وجدت كوانتين فرصة للراحة وبدأت بالتفكير في كيفية إشراك تجربتها كعرّافة في مقالها. فجأة سمعت صوتاً طفولياً خارج الخيمة:

ـ هل طلبت قراءة طالعك خالي زافي؟

رد صوت عميق أجش: «أنت أولاً كاترينا».

قالت الفتاة الصغيرة:

ـ دخلت بالأمس.. فتنبأت لي السيدة بأنني سأحصل على الدراجة التي أريدها هدية في عيد الميلاد.

قال الصوت العميق مجدداً بمرح وبلكنة أجنبية:

ـ لكنني لا أريد دراجة.

ضحكت الفتاة: «هيا أدخل خالي زافي.. الأمر مرح.. صدقاً!»

سمعت كوانتين وقع الأقدام يقترب فهبّ عقلها بسرعة فائقة.. لقد عرفت الصوت والاسم.. كاترينا. في اليوم السابق عندما كانت ترسم الخيمة الكبيرة، جاءت فتاة صغيرة ووقفت قربها وراحت تتأمل رسمتها من فوق حلوى السكر فابتسمت كوانتين لها وتابعت العمل.. إنها معتادة على تجمّع الأولاد عليها وهي ترسم.. ما إن تفتح كرسيها القتال وتبدأ الرسم حتى تجذب إليها ناقدي الفن الصغار الذين لا يقوون على

التغلب على فضولهم

ولم تكن كاترينا استثناء إذ طلبت منها بدافع الفضول أن ترسم لها صورة، فاستجابت كوانتين لأنها تحب الأطفال.. إن كاترينا ذات الأنف المتمش وشعرها الأشقر المربوط كذنب حصان، ووجهها المتسخ زائرة السيرك الدائمة.. حدثتها كاترينا عن نفسها وهي ترسمها.. تكلمت وتكلمت، وتكلمت.. وبدأت كوانتين الآن تحك عقلها لتتذكر ما قالته.. تذكرت قصصاً عن المدرسة، المعلمات، أخوتها.. و.. أجل.. الخال زافي!

تذكرت أن كاترينا قالت إن الخال زافي يصنع الصور. وليتها سألتها المزيد، لعنت قلة اكتراثها ولكنها ما زالت تذكر نقطة واحدة.. للخال زافي عدة «زوجات خال»! عندما انفرجت ستارة الخيمة ودخل رجل مرتدٍ بذلة سوداء شدت كوانتين على أسنانها وشبكت أصابعها برجاء صامت.. لم يكن لديها الكثير لتستند عليه من أجل نبوءة، لكنها ستبذل ما بوسعها من أجل الخال زافي.

توقف الرجل هنيهة تاركاً الستارة مفتوحة لينظر إلى كوانتين بشكل أفضل.. أظهر النور من الخارج شعره الأشقر الذي حوله النور إلى لون غير عادي من الذهب الأحمر، وأحست كوانتين أن إلهاً قديماً من آلهة الجمال دخل الخيمة، حاملاً معه الشمس.. لم ترَ وجهه لأن النور كان خلفه، لكن الاحمرار ارتفع إلى وجنتيها لأنها شعرت بعينيه تجولان بكسل على شعرها، وصدرها العاجي.

انسدلت الستارة، فاختفت في العتمة خطوط كتفيه العريضتين، وخصره النحيل.. ولكنها رأت منه عجرفة لم ترها من أي زبون آخر. تقدّم منها قائلاً:

ـ هل أنا محظوظ لألتقي بالشهيرة، أم أقول بغير الشهيرة، مدام أزمير الد؟

كانت كوانتين تحاول دراسة وجهه في الظلام.. الخال زافي، كما رأته، أصغر بكثير مما خمّنت.. إنه في أواسط الثلاثين، وهو وسيم بشكل

بعدما أنهت التعامل مع ثلاثة عشر زبوناً، شعرت بالاسترخاء كثيراً، وبدأت الاستمتاع بعملها.. إن سر قراءة الطالع الناجح هو في تقويم الزبائن بسرعة، ثم القول لهم ما يريدون سماعه.. أم حامل في الخامسة والعشرين تتهدث بصوت مسموع حين كشفت الكرة أن طفلها القادم سيكون هادئاً محبوباً وينام الليل كله.. رجل ضخم يرتدي الجينز ويضع وشماً على يديه، ابتسم لها حين لاحظت خط الحياة في كفه وتكهنت له بعطلة طويلة ممتدة. أما الأولاد فكانوا أسهل من الكبار. فقد هددتهم بالويل والثبور بسبب سوء تصرفهم في الماضي ووعدتهم بمكافآت ثمينة إن أحسنوا التصرف، وقد جعلتها الرهبة والمداهنة على وجوههم تشعر وكأنها فعلاً المدام أزمير الد الغامضة..

عندما خف العمل قليلاً وجدت كوانتين فرصة للراحة وبدأت بالتفكير في كيفية إشراك تجربتها كعرّافة في مقالها.. فجأة سمعت صوتاً طفولياً خارج الخيمة:

- هل طلبت قراءة طالعك خالي زافي؟

رد صوت عميق أجش: «أنت أولاً كاترينا».

قالت الفتاة الصغيرة:

- دخلت بالأمس.. فتنبأت لي السيدة بأنني سأحصل على الدراجة التي أريدها هدية في عيد الميلاد.

قال الصوت العميق مجدداً بمرح وبلكنة أجنبية:

- لكنني لا أريد دراجة.

ضحكت الفتاة: «هيا أدخل خالي زافي.. الأمر مرح.. صدقاً!»

سمعت كوانتين وقع الأقدام يقترب فهبّ عقلها بسرعة فائقة.. لقد عرفت الصوت والاسم.. كاترينا.. في اليوم السابق عندما كانت ترسم الخيمة الكبيرة، جاءت فتاة صغيرة ووقفت قربها وراحت تتأمل رسمتها من فوق حلوى السكر فابتسمت كوانتين لها وتابعت العمل.. إنها معتادة على تجمّع الأولاد عليها وهي ترسم.. ما إن تفتح كرسيها النقال وتبدأ الرسم حتى تجذب إليها ناقدي الفن الصغار الذين لا يقوون على

التغلب على فضولهم.

ولم تكن كاترينا استثناء إذ طلبت منها بدافع الفضول أن ترسم لها صورة، فاستجابت كوانتين لأنها تحب الأطفال.. إن كاترينا ذات الأنف النمش وشعرها الأشقر المربوط كذنب حصان، ووجهها المتسخ زائرة السبرك الدائمة.. حدثتها كاترينا عن نفسها وهي ترسمها.. تكلمت وتكلمت، وتكلمت.. وبدأت كوانتين الآن تحك عقلها لتتذكر ما قالته.. تذكرت قصصاً عن المدرسة، المعلمات، أخوتها.. و.. أجل.. الخال زافي!

تذكرت أن كاترينا قالت إن الخال زافي يصنع الصور. ولبثها سألتها المزيد، لعنت قلة اكتراثها ولكنها ما زالت تذكر نقطة واحدة.. للخال زافي عدة «زوجات خال»! عندما انفرجت ستارة الخيمة ودخل رجل مرتدٍ بذلة سوداء شدت كوانتين على أسنانها وشبكت أصابعها برجاء صامت.. لم يكن لديها الكثير لتستند عليه من أجل نبوءة، لكنها ستبذل ما بوسعها من أجل الخال زافي.

توقف الرجل هنيهة تاركاً الستارة مفتوحة لينظر إلى كوانتين بشكل أفضل.. أظهر النور من الخارج شعره الأشقر الذي حوله النور إلى لون غير عادي من الذهب الأحمر، وأحست كوانتين أن إلهاً قديماً من آلهة الجمال دخل الخيمة، حاملاً معه الشمس.. لم ترَ وجهه لأن النور كان خلفه، لكن الاحمرار ارتفع إلى وجنتيها لأنها شعرت بعينيه تجولان بكسل على شعرها، وصدرها العاجي.

السدلت الستارة، فاختفت في العتمة خطوط كتفيه العريضتين، وخصره النحيل.. ولكنها رأت منه عجرفة لم ترها من أي زبون آخر. تقدّم منها قائلاً:

- هل أنا محظوظ لألتقي بالشهيرة، أم أقول بغير الشهيرة، مدام أزمير الد؟

كانت كوانتين تحاول دراسة وجهه في الظلام.. الخال زافي، كما رأته، أصغر بكثير مما خمّنت.. إنه في أواسط الثلاثين، وهو وسيم بشكل

مبدع.. الشعر الذهبي زاد من إبراز اسمرار بشرته التي أحرقتها الشمس.. وعيناه الزرقاوان الثاقبتان كانتا عميقتين، وأنفه معكوف وفمه قاس صارم يكمل مظهر نجم سينمائي.. ولا عجب أن يكون لكاترينا عدة «زوجات خال»!

ردت ببرودة لم تكن تشعر بها:

- بل الشهيرة.. لأن تنبؤاتي صحيحة جداً.

لقد قررت مواجهة العجرفة بعجرفة.. الخال «زافي» سيواجه التحدي.

جلس قبالتها يسند ظهره إلى ظهر الكرسي.. رمى النور من الكرة البلورية خطوط وجهه في ظل خشن بارز العظام.. فبدا شريراً بشكل غريب. فارتعشت كوانتين لا إرادياً.

قال بصوت ملؤه التسلية:

- وهل بإمكانك قراءة طالعي بشكل صحيح؟

حاولت إطالة الوقت:

- أمهلني لأستشير كرتي البلورية.

كان جميع زبائنها حتى الآن من النوع السهل، ولكن الخال زافي وبا بالأمس، لم تحضر كوانتين لهذا الرجل الجالس قبالتها. لسبب ما، تصورت الخال زافي رجلاً عابثاً إنما ناجح مع الأولاد، ولكنها لم تتوقع رجلاً وجوده الجسدي يعلن عن مدى رجولته..

عادت كوانتين إلى ما تعرفه عنه «إنه يصنع الصور» وتساءلت أي نوع منها.. السينما؟ الصور الفونوغرافية؟ الرسم؟ لوحت يديها بحركة فارغة فوق الكرة البلورية، ثم قررت أن تخاطر. قالت بصوت هامس عميق أملت أن يبدو غامضاً:

- أرى.. إبداعاً.. في ماضيك وحاضرك ومستقبلك.

ارتفع حاجب الخال زافي بقوس ساخر ومال إلى الأمام ينظر إلى الكرة: أين؟

ارتدت كوانتين إلى الوراء وكأنما أهينت:

- أسرار الكرة البلورية لا تُكشف أمام أي كان.. فقط أمام من قُدّر له أن يطلع على المخبأ في وسطها.

- وهل تخبرك بأية طريقة أنا مبدع؟

أمرته: «يدك من فضلك».

ضحك لها فظهر صف أسنان بيضاء قوية.

- وهل هذا عمل صعب على نور البطارية؟

أغمضت كوانتين عينيها، وهزت رأسها بأسى وكأن قلة إيمانه أحزنتها:

- من الهرطقة الشك في قوى الكرة البلورية.

رد برقة: «ألا تعلمين أن المهرطقين ينالون مرحاً أكثر؟»

نظرت إليه كوانتين نظرة متعالية، ومدت يدها بوقار.. ووضع الخال زافي يده اليمنى بين يديها.. كان دفء بشرته مثيراً فوق راحتيها وأحست بأصابعه الطويلة النحيلة.. إنها يد فنان.. قالت ببطء وهي تحدق في كفه:

- أنت ترسم..

صمتت قليلاً.. ثم استمدت ثقة من صمته:

- أنت ترسم اللوحات.

وان صمت آخر دفع كوانتين إلى رفع عينيها إلى عيني الخال زافي الزرقاوين.. في هذه المرة كانت الجولة التي قامت بها عيناه على وجهها وعنقها، أشد قسوة.. لكن تأمله المتعمد لها ترك لها فرصة لتعرف أنها على حق.. وأحست بإلهام مفاجىء.

سحبت نفساً عميقاً: أنت ترسم لوحات كثيرة متعددة الأنواع ولكن اهتمامك يتركز على الصور الشخصية.. المهم عندك، الوجه البشري..

سحب يده فجأة من بين يديها وقال بفم مشدود إلى خط مستقيم:

- كيف عرفت هذا بحق الله؟

شعرت كوانتين بإحساس من أصاب ثروة.. بل تساءلت عما إذا كانت ستتخلى عن العمل الصحفي، لتمتهن العرّافة وقراءة الطالع..

قالت ووجهها قناع متكبر:

- مع أن مدام أزميرالد لم ترك قبل اليوم.. إلا أنها تملك القدرة على اختراق أعمق مكنونات قلبك.

- وهل تعرف مدام أزميرالد أين أعيش؟

راقبها بقلق غير متوقع منه.

اللعنة! أخفت كوانتين ارتباكها بأن انحنت على الكرة.. لم يكن لديها فكرة عن المكان الذي جاء منه الخال زاڤي وما زالت غير قادرة على تحديد لكنته. أهي أوروبية؟ فجأة خطرت لها فكرة، فرفعت رأسها وقالت:

- ترفض الكرة البلورية الكشف عن هذه المعلومات.

استرخى الخال زاڤي.. واستند إلى الوراء مجدداً، عاقداً ذراعيه على صدره العريض.

- ظننت أن من قُدّر له أن يطّلع على أسرارها..

لوحت بيدها بنفاد صبر.

- لدى الكرة ما هو أهم لتكشفه.

لم يقتنع. أحنت رأسها مجدداً على الكرة البلورية.. وابتسمت بينها وبين نفسها.. إنه الوقت المناسب لضربه بمعلوماتها القليلة.. أفضل ما في قراءة الطالع هو أن يقول المرء كل ما يحلو له تقريباً.. فبدأت بصوت هامس:

- أرى.. الكثير من النساء.

قال ساخراً: «لخمين بارع».

أردفت وكأنه لم يتكلم:

- .. نساء.. عديدات.. عديدات جداً.

ابتسم الخال زاڤي برقّة: «لا يمكن أن يكن كثيرات أبداً».

جعلتها كلماته تتوقف.. في كلامه ما أعطاها فكرة جديدة.. فكرة

جريئة جعلت يديها ترتجفان حتى اضطرت إلى شبكهما في حضنها.

نظرت إليه بعينين رماديتين، وقالت:

- هناك كثير من النساء.. ولكن.. ما من واحدة منهن لمست شغاف قلبك.. لقد كشفت الكرة البلورية هذا: قلبك فارغ.. غرفة فارغة.. خالية من الحب..

كان وجهه قاسياً لا تعابير فيه، فابتلعت كوانتين ريقها بصعوبة، وأضافت:

- .. هذا الفراغ في قلبك يخيفك.. وكأنه عيب فيك.. الكثيرات من النساء الجميلات والمرغوبات مررن بين ذراعيك لكن لم تعن لك أية واحدة منهنّ شيئاً، حتى تساءلت عما إذا كان هناك نوع من العمى يمنعك من إيجاد امرأة واحدة تملأ قلبك، منزلك، وفراشك؟

ران صمت مطبق فسُمعت الأصوات من الخارج، صيحات الأطفال ووقع الأقدام. كان وجه الخال زاڤي غارقاً بالغضب البارد، فعرفت كوانتين أنها تمادت كثيراً.

قال بسخرية لاذعة:

- لديك خيالات مثيرة للاهتمام مدام أزميرالد.

التجأت كوانتين إلى دورها:

- لا تنغمس المدام أزميرالد في الخيال.. الرغبة المخبأة في القلب البشري ومستقبله مكشوفة لها.

- لقد قلت لابنة أختي بالأمس إنها ستتلقى دزّاجة، وما هذا بسر.. فالجميع في الناحية هنا يعرف ماذا تريد.

- ما يريده الأطفال جلي وسطحي.. أما الكبار.. فرغباتهم معقدة خفية.

دفع الخال زاڤي بحركة مفاجئة الكرة السحرية جانباً.. فصاحت كوانتين مصدومة، وحاولت أن تقف.. لكنه كان أسرع منها إذ ضغطت إحدى يديه على كتفها، فأبقتها في مكانها.. أما اليد الأخرى فأمسكت ذقنها، وأجبرت وجهها على الارتفاع إليه.. ولكن لمسته جعلت قلبها

حتى سرعة، وارتفع الاحمرار إلى وجهها.

نظر إليها ذلك الوجه الوسيم المذهل مفكراً.. ثم قال بسخرية:

- ليتني أعرف..

هز رأسه: لا.. أعتقد أن مدام أزميرالد لا تكشف أبداً عن مصادرها.

انتزعت ذقنها من يده: «أبداً».

هز كتفيه العريضتين:

- حسناً.. شكراً للتسلية التي قدمتها لي.

وارتدّ ليغادر الخيمة.

- انتظر!

هل كان بُعد نظرها بشأنه محق أم خاطىء؟ عرفت أنها كانت مهينة في كلامها، جريئة لأنها اقتحمت عليه خصوصياته.

نظر إليها بغير تصديق:

- أتقصدين أن هناك المزيد؟

- أنا.. أنا لم أقل لك في الواقع.. حظك.

- أتخشين أن أسترد مالي؟

تلعثمت كوانتين قليلاً:

- تُظهر الكرة السحرية.. شيئاً آخر.

مرر الخال زائي أصابعه في شعره الذهبي الكثيف بنفاد صبر:

- لا بد أنني على وشك أن أنال عقابي.. آه.. يا الله.. تابعي..

- سيكون هناك امرأة..

قاطعها ساخراً: «لا تتركين الزبون خائب الأمل أبداً».

- .. وستكون من تبحث عنها.

- أمر مذهل! ظننتك ستتكهنين بأنني سأحصل على أزرار ذهبية في عيد الميلاد.. ما كانت هذه؟ النبوءة رقم.... لتستخدميها حين يكون الزبون رجلاً غير متزوج، وفوق الثلاثين؟

استعادت كوانتين سيطرتها على نفسها وعادت إلى دور العرّافة

الغامضة وقالت هز رأسها:

- كل نبوءات المدام أزميرالد فريدة من نوعها ولكل نبوءة اسم خاص.

- مذهل! ما اسم هذه؟

- اسمها... نبوءة الرغبة.

٥٥٥

٢ - وحيدة كالقمر

عندما ترجلت كوانتين من القطار تقبلت حضن أخيها المحب بسعادة.. لقد وصلت الآن إلى بلدة صغيرة في «الونغ أيلند» اسمها «كولدسبرنغ هاربور».

- أهنئك كوين.. المقالة عن السيرك رائعة!

- نُشرت؟

- ألم تريها؟

هزت كوانتين رأسها نفياً وخرجت من محطة القطار إلى الباحة التي أوقف فيها سيارته.

- أنا كالزوجة المخدوعة.. آخر من يعلم.

قال مورغان بورنيت:

- حصلت على نسخة من المجلة بالبريد يوم أمس.. وعندئذ أسرعنا للبحث عن مقالتك.

ابتسمت: «أنت وسولين أخلص الداعمين لي.. والآن هلاَّ أقنعت رئيس التحرير بأن يدفع لي أجراً أكبر..»

مال مورغان إليها يعبث بشعرها:

- أنت ناجحة بعملك شقيقتي الصغيرة.

- لا تتبجح بأنك الأكبر، لأنك تكبرني بخمس دقائق!

دام شجارهما المرح كل الطريق إلى منزل مورغان الواقع على جرف مرتفع يطل على «الونغ ايلند ساوند».. إنه شجار يستمتعان به وهما معتادان عليه.. مورغان وكوانتين توأمان. ولكن كوانتين طويلة نحيلة

سوداء الشعر ومورغان قصير مستدير، أحمر الشعر وجهه ملىء بالنمش الذي استمر إلى ما بعد المراهقة.. وهو ذو شخصية منطلقة مرحة على عكس شخصية كوانتين الهادئة. وبرغم اختلافاتهما كانا مقربين منذ الطفولة.

مرّ شهران على إنهاء مقالتها المتعلقة بالسيرك المتنقل وقد أبعدتها عن تفكيرها بعدما سنحت لها فرصة مهمة حرّة في كاليفورنيا إثر عودتها إلى نيويورك. كانت تحس بالإرهاق بعد ضغط العمل في الأشهر القليلة الماضية، وقبلت أخيراً دعوة طال زمانها من أخيها وزوجته سولين، لتقضاء نهاية الأسبوع معهما. كانت في شوق للقيام برحلة تسوق في محلات البلدة الجذابة، ولصحبة مورغان وسولين اللطيفة.

قالت لها زوجة أخيها في أول تعليق بعد خروجها من السيارة:

- تبدين مرهقة.. هل كنت تنامين بشكل جيد؟

فكرت كوانتين وهما يتعانقان أن سولين هي نقيض أخيها المتفجر حماسة.. كانت فتاة جذابة، بنية الشعر والعينين استخدمها مورغان في البداية سكرتيرة له بعدما تفاعدت سكرتيرته! ولكن سولين الواقعية المتعقلة سرعان ما سيطرت على مكتبه، ونظمته كما نظمت مورغان نفسه بسرعة.. كان مستشاراً تنفيذياً في المحاسبة، وصاحب أفكار نارية جعلته يرتقي سلم النقابة في مهنة قد يتم النجاح فيها بين ليلة وضحاها.. لكن، بين الحين والآخر، كان بحاجة إلى من يعيده إلى الواقع، وتقلبت سولين من سكرتيرة له إلى الموجهة له، فالحبيبة فالزوجة. وكان زواجاً ظنته كوانتين غير محمود النتائج.. ولكن ويا لدهشة الجميع بدا زواجاً مباركاً من الله..

شرعت كوانتين بالقول وهي تدخل ردهة منزل أخيها: «في الواقع..».

قاطعتها سولين بلهجة تأنيب:

- عرفت هذا حالما وقع بصري عليك! كنت تعيشين على فتات الطعام، تكتبين كل ليلة ولا تتنشقين الهواء المنعش.. إن أول ما سأفعله

بك هو تقديم غداء محترم.. أنت نحيلة كثيراً.

لم تكن كوانتين على استعداد للاعتراف أمام أي إنسان أبداً.. لكن استقلاليتها ذابت حين بدأت سولين.

قالت بصوت مازح:

- ألن تسمحي لي بتبديل ثيابي أولاً؟

وكان الرد:

- أسمح لك فقط إذا ارتديت ما هو مريح ومناسب لتساعديني في الحديقة.

التفتت كوانتين إلى مورغان ترمي بيديها في الهواء يائسة:

- كيف أصبحت زوجتك هكذا؟

ردّ ضاحكاً: «السبب أنا.. تعالي سأحل حقائبك إلى غرفتك».

كانت غرفة الضيوف مزينة بلون أخضر تفاحي وأصفر يرّاق.. مرد الألوان إلى ذوق مورغان لا إلى ذوق سولين. كانا قد تجادلا طويلاً بشأن أثاث المنزل يوم انتقلا إليه منذ سنتين. لكن رغم خلافاتهما كان منزلهما من أجمل المنازل التي شاهدتها كوانتين. في الخارج كانت أشجار الصنوبر الخضراء والصفصاف تحيط بالبناء الخشبي.. أما في الداخل فكانت الغرف مفروشة بشكل بسيط مريح.

كانت نسخة من المجلة التي تضم مقالتها ملقاة على الفراش ومفتوحة على الصفحة التي تحمل اسمها. ابتسمت كوانتين بسبب اهتمام سولين فخلعت حذاءها العالي الكعبين وجلست على كرسي هزاز ودست قدميها بالجوارب وبدأت بقراءة المقالة راحت تدقق بالكلمات لترى التغييرات التي قام بها رئيس التحرير.. لاحظت راضية أن معظم قطع المقال لم تمس كثيراً.. وأن رسومها كانت جيدة: كان هناك رسم لأوتو، جسد متناه في الصغر أمام الخيمة الكبيرة، ورسم آخر لمدرب الأسود وهو يفرقع بسوطه فوق الحيوان الكسول، ثم صورة كاترينا مع غمامة من حلوى السكر «غزل البنات».

جلست في الكرسي الهزاز مستندة، تتأرجح بلطف. تذكرت آخر

أمسية قضتها هناك.. لم تتمكن قط من إخراج خال كاترينا زافي من تفكيرها، كان وسيماً وكاملاً كرجل.. ولكنها ما زالت تخجل كلما فكرت في بعض الأشياء التي قالتها.. كيف تجرأت على قولها للغريب؟ عندما تفكر فيها تحس بأنها كانت تحت تأثير سحر تلك الليلة.. تسريحة الشعر، الماكياج، الفستان الأحمر والجو في تلك الخيمة، كانت جميعها تحمل نوعاً من السحر الغريب.. لقد فعلت، وقالت أشياء، ما قالتها أو فعلتها في الحياة الحقيقية.. الشيء الوحيد في كل ما حدث أنها لن تلتقي مجدداً بالخال زافي.

وضعت كوانتين المجلة من يدها ووجدت أنها كلما قللت التفكير في تلك الليلة وفي الخال كوانتين كان أفضل لها.. غيرت ملابسها بسرعة، وارتدت جينزاً وكنزة مرتفعة الياقة ونزلت إلى المطبخ حيث وجدت سولين تقطع البندورة للسلطة.

قالت: «ها أناذا.. جاهزة ليومين من العمل الشاق!»

ارتدت إليها سولين مبتسمة:

- لا تبدئي بالتذمر.. ابحثي عن ميدعة وباشري العمل.

وفيما كانتا واقفتين راحتا تتحدثان عن أشياء غير مترابطة.. ما تزال سولين تعمل ثلاثة أيام في الأسبوع في مؤسسة مورغان، أما الأيام الأخرى فتقضيها في الحياكة.. في إحدى الغرف نول كبير ورفوف متراصة من الصوف والحرير والموهير. ولدى كوانتين عدة وشاحات وقبعات نسائية. وكانت تقترح على سولين محاولة تسويق إنتاجها في محلات البيع في نيويورك.

قالت سولين وهي تضع الأطباق على الطاولة:

- لم يعد لي الطاقة.

- ولكنها جميلة.. لقد أحببت الوشاح الذي صنعته لي في عيد مولدي.

قالت سولين: «عما قريب لن يبقى عندي وقت».

مرت لحظات قبل أن تستوعب كوانتين معنى ما قالته سولين. ثم

ارتدت بحدة تواجه زوجة أخيها:

- أنت تعنين...؟

ضحكت سولين فجأة، ورمت ذراعيها حول كوانتين.

- أجل.. سأجعل منك عمة.

- لكنني ظننت.. ألم يقل الطبيب...؟

بعد عدّة حالات حمل فاشلة، قال الطبيب لمورغان وسولين إن الأمل ضئيل في حمل سولين مرة أخرى.. ولم تنس كوانتين اتصال مورغان بها، أو معنويات زوجة أخيها المنهارة، أو زياراتهما المتكررة لأطباء آخرين لمزيد من الآراء.

وقالت سولين بفخر: «أحب هزيمة العلوم الطبية».

- منذ متى تعرفين؟

- من المحرج الاعتراف.. ولكن الأطباء أقنعوني بأنني لن أنجب طفلاً بحيث لم أعرف إلا قبل أسبوعين، ولكنني الآن في الشهر الثالث وقد مرت مرحلة الخطر.

دار الحديث وقت الغداء حول حمل سولين.. وأصر مورغان على توقفها عن العمل. احتجت لأنها ترفض أن تصبح كالحمل في الأشهر الستة القادمة.. ولكن جدالهما لم يمنع كوانتين من ملاحظة السعادة التي بعثها توقع وصول الوافد الجديد. وقد ظلت هذه السعادة مرفرفة حولها بعد الظهر، حين كانت جالسة على الشاطىء الصخري تحت المنزل تراقب طيور النورس تغوص لالتقاط السمك من المياه الخضراء الهادئة.. ورغم سعادتها بحمل سولين رافقها إحساس من الحزن.. فهي ومورغان على وشك الاحتفال بعيد مولدهما السابع والعشرين.. وها هو يبدأ حياته كأب.. أما هي فتتقدم في العمر أكثر فأكثر بحيث يصبح من المخاطرة أن تحمل.. وكانت أمنيتها بأن تجد الزوج والعائلة تبتعد شيئاً فشيئاً.

التقطت حصى مسطحة ورمتها على الماء، فسقطت محدثة رذاذاً.. ورمي الحصى كان لعبة طفولتها كما تتذكر. هزت رأسها متوترة.. لماذا

أصبحت فكرة الأولاد والأطفال مهمة هكذا لها؟ إنها تحب حياتها كصحافية حرة.. وتحب التحرك والسفر متى شاءت وحيثما أرادت.. ولم يسبق أن شعرت بالانزعاج من الوحدة.

لكن الشك استمر في أعماقها.. فثمة تشاؤم حول حياتها ومستقبلها وفراغ لا تملأه المهمات المثيرة أو تصدّر اسمها المقالات في المجلات الوطنية.. تعرف ما ينقصها.. حب رجل.. والرغبة في حمل أولاده.. لقد كان من السهل أكثر التركيز على الأطفال، فهي تراهم في كل مكان.. لكنها لم تقابل الرجل الذي ترغب في الزواج به.

حين التقطت حجراً في هذه المرة كان كبيراً، صخرة غير سوية، رمتها بكل قوتها فأرسلت رذاذاً مرتفعاً أجفل طير نورس كان يستريح على سطح المياه في مكان قريب.. لماذا لم تلتق بالرجل المناسب؟ إنها جذابة للرجال وتتواعد معهم دائماً.. وقد حدث أن خرجت مع بعض من يُعتبرون من أكثر الرجال إثارة في نيويورك.. تاجر أسهم مالية في «وال ستريت» كسب أول مليون دولار له قبل بلوغه الثلاثين، ومحام يستولي على العناوين الكبرى في الصحف لأنه يستلم قضايا مثيرة للجدال، وقائد أوركسترا شهير حاول إغواءها لسماع موسيقى من تسجيلاته الخاصة.. ثم هناك ماكس الذي لم تجد الشجاعة لتواجهه.. لكن لسبب مجهول لم يلمس أي منهم ذلك الجزء الذي تهجع فيه عواطفها المسجونة تحت مظهر بارد.

وجدتها سولين بعد ساعتين، جالسة على الصخور.. وعيناها شاخصتان إلى الأفق.. كانت الغيوم السوداء الكبيرة قد انجرفت من الشمال، يرافقها هواء خريفي قارس، كان يلفح شعر كوانتين ويتلاعب حول وجهها.

جلست سولين إلى جانبها وأعطتها كنزة سميكة:

- خشيت أن تصابي بالرشح.

- آه.. شكراً.

لبست كوانتين الكنزة، وجذبت شعرها الطويل من الياقة..

فسألت سولين:

- ما الأمر كوني؟ تجلسين هنا منذ ساعات.

- أفكر فقط..

- أدفع قرشاً لأعرف بماذا تفكرين.

- ستهدرين مالك سدى.

عقدت سولين يديها حول ركبتيها:

- حسناً.. أراهن بعشر دولارات أنك تفكرين في حياتك العاطفية.

ردت كوانتين بلهجة مرحة:

- أليس هذا ما يستحوذ على أفكار كل فتاة عزباء؟

كانت سولين تنظر إلى قارب شراعي وحيد يمر بالميناء.. أردفت كما أراهن أنك تفكرين في عدم وجود أحد في حياتك.

وكان هذا تكهناً قريباً من الهدف..

قالت: «ألا تعلمين أنني فتاة مرغوبة في هذا الجانب من نهر هدسن؟».

- مرغوبة لمن؟

قالت وهي تتمثل بشعر شهير:

- لرجل ثري.. لرجل فقير.. لشحول.. للص..

ارتدت سولين إليها، ونظرت في وجهها مباشرة:

- أنا وموري قلقان عليك حقاً.. كلما جئت إلى هنا في زيارة، تقضين ساعات على الشاطىء.. رجاءً قولي لي ما بك؟

التقطت كوانتين حفنة رمل، وتركت حباتها تتسلل من بين أصابعها، إذ صدمت لهجة سولين الصادقة دفاعاتها واكتشفت فجأة أنها متعبة من حمل مشاكلها بمفردها فبدأت تقول نصف مازحة:

- لا أدري.. أليديك اليوم بطوله؟

ردت سولين بهدوء: «لدي الوقت الذي تريدين».

نظرت كوانتين مجدداً إلى الماء:

- أفكر في الرجال، بحياتي وفي الأولاد.. إلى أين أنا ذاهبة، ماذا سأفعل؟ كل تلك الأسئلة التي من المستحيل إيجاد رد عليها.

- وماذا تريدين أن تفعلي؟

- ليتني أعرف.. هنا هي المشكلة.. أحب عملي، ولا أريد تركه. لكنه لا يكفيني.

- طالما تساءلت أنا وموري عن عدم اصطحابك صديق حين تأتين إلى هنا.. أليس حولك رجال جذابون؟

هزت كوانتين كتفيها النحيلتين: «لا أحد».

وما جدوى ذكر خال كاترينا زاكي؟ إنه أكثر الرجال جاذبية ولكنها لن تراه مجدداً.

- ولمَ لا؟ يبدو لي أن هناك الكثير من الرجال المثيرين.

عبست كوانتين:

- مثيرون أمر غير كاف.. آه! لا أدري.. لكن يبدو لي أن من أخرج معهم من الرجال سطحيون.

قالت سولين بصوت رقيق:

- ربما ليسوا سطحيين حقاً كوني.. بل ربما ترينهم أنت هكذا.

ارتدت كوانتين إليها بارتباك: «ماذا تقصدين؟»

نظرت سولين إليها بجد:

- أنت لا تثقين بالرجال.

اتسعت عينا كوانتين دهشة: «لكنني أثق بهم!»

هزت سولين رأسها وخصلاتها البنية اللون تتأرجح على جبينها:

- لقد أمضيت سنوات طويلة تحاولين أن تكوني مستقلة، لذا لم تحبي رجلاً فرصة التقرب بك.

سعت كوانتين إلى ما تنكر به قول سولين.. فهي تثق بالرجال.. إنها تثق بمورغان وبزوج أمها ستان الذي تزوج أمها وهي في الثانية عشرة، وأصبح الأب الذي لم يكن لديها يوماً! كانت هي وستان مقربين أكثر من الكثيرين من الأبناء والآباء الحقيقيين.. وبدأت تقول:

- لا أظن..

أردفت سولين بأسى:

- والأنكى أنك نجحت بإبعاد الرجال عنك، بإيجاد العيوب في كل رجل تقابليه.. فتوقفي عن بناء جدار حول نفسك كوني، وستجدين أن الحب هو الخطوة التالية.

طاردت كلمات سولين كوانتين ما تبقى من عطلة نهاية الأسبوع، بل إلى ما بعد عودتها إلى مانهاتن.. التلميح بأنها تتعمد التفتيش عن المساوىء في الرجال الذين تخرج معهم أمر يصعب عليها تفسيره منطقياً، نعم لا تنكر أنها وجدت معظم الرجال إما مضجرون أو عديمو الإحساس أو مملون.. ولكنها كانت تعتقد أنها تعالي من زيادة في الذوق السليم.. أما الآن فهي تتساءل عما إذا كانت سولين دقيقة بشأن ردة فعلها مع الرجال.. أتستخدم استراتيجية دفاع عاطفي تمكنها من إبعاد الرجال عنها؟

احتلّ السؤال المركز الأول في تفكيرها حين التقت ماكس على موعد غداء حدّدته في يوم الجمعة.. عرفت أنها ماطلت بما فيه الكفاية، بالسماح لمهمة السيرك ومن ثم مهمة كاليفورنيا أن تطولا، وكان أن أجلت محادثته كل هذه الفترة وها هي اختارت بحذر أفخم مطعم في منهاتن للقائهما.

كان ماكس يقول والساقي يحمل إليهما لائحة الطعام:

- شكراً لك على دعوة الغداء.

نظرت كوانتين إليه خلسة، وفكرت أن الكثيرات من النساء يعتبرنها مجنونة.. ماكس رجل جذاب في أوائل الأربعين، في شعره الأسود خصل فضية مميزة وهو مهندس ناجح معروف.. أخلاقه ساحرة. في الأشهر التي عرفته فيها حضرت معه الأوبرا والباليه أكثر مما حضرت طوال حياتها. وكان سيداً مهذباً كذلك.. أو على الأقل كان هكذا حتى آخر موعد قبل قبولها بمهمة السيرك.. جعلها عدم تكلفه بالرسميات في البداية تستريح، معتقدة أن لديه حساسية حقيقية لأنها تكره أن يُضغط عليها في علاقة لا تريدها.. لكن بعد تطور صداقتهما أصبح عدوانياً أكثر، وعناقهما الوداعي بعد كل لقاء أصبح عناقاً حاراً مشبوباً من

جانب واحد.. وأحست كوانتين أنه لن يكتفي بهذا بعد الآن.

قالت لحبيبه:

- إنه أحد أفضل المطاعم عندي، فالخدمة فيه جيدة.

أشار بيده إلى النوافذ الخشبية الإطار التي تعطي نور السماء قتامة:

- إنه ساحر.. هل كانت زيارتك لشقيقك وزوجته ممتعة؟

- نعم كانت ممتعة كثيراً.

وطفقت تتكلم عن نشاطاتها في تلك العطلة، وأخفت إحساساً بالخيبة والارتباك.. ماكس في الواقع رجل جذاب.. وحسب مقاييس أية امرأة أخرى، يمكن اعتباره مرغوباً.. تساءلت لماذا لا تتجاوب مع رجل سيقول عنه كل صديق وقريب إنه صيد مثالي.

قاطع ماكس كلامها ليمسك يدها التي كانت تعبث بحافة كوب العصير أمامها:

- تبدين جميلة خلاّبة اليوم، أم سبق أن قلت هذا؟

تململت كوانتين في مقعدها. عادة ماكس أن يوقفها وسط الحديث بتعليق ساحر.. وكأن ما تقوله عديم الأهمية.. ليت سولين موجودة لتثبت لها أنها لا تختلق العيوب في تصرفاته وشخصيته. لكن، لم يظهر شيء من أفكارها على وجهها عندما قالت:

- شكراً لك.

وأبعدت يدها عنه.. ليست بحاجة لمن يقول لها إنها جميلة. كانت بذلتها الحريرية البيضاء تبرز قدها النحيل، البلوزة الكحلية والخمراء تبرز لونها الحي، وشعرها الأسود معقوص على رأسها بطريقة ملوكية كانت تدير رؤوس الرجال أينما حلت.. لكن هذا كله لم يكن يهمها.. لماذا يهتم الرجال فقط بالأمور السطحية.. هل هذا كل ما يفكرون فيه.

قال ماكس بنظرة عاتبة: «تبدين هادئة اليوم».

ابتلعت ريقها بصعوبة:

- كنت أفكر ماكس أننا نتقابل كثيراً.

بدا القلق في عينيه البنيتين:

- وماذا يعني هذا؟

- يجب كلانا استقلاليته وحريته، لذا لن يورط أي منا نفسه في هذه المرحلة من حياته.

قال عابساً: هذه «كليشيه» لعينة.

غار قلبها وبدأت يداها تلويان المنديل في حضنها.

- المسألة أننا خرجنا مؤخراً كثيراً..

- ظننت أنك تحبين أن تكوني برفقتي.

كان صوته مرتفعاً بحيث جذب اهتمام زبائن قريبين.

احتجت بسرعة: لقد استمتعت كثيراً.

قال ساخراً:

- طبعاً.. ومن لا يستمتع بمقاعد الأوركسترا في حفلة باليه أو مسرح؟

بدأت كوانتين تتساءل عما أعجبها يوماً في ماكس.. ها هي تصرفاته الساحرة تتبخر كلياً وقسماته الجذابة تتجعد من الغضب:

- هذا ليس السبب.. نحن منسجمان إنما ليس هناك ما يكفي من مشاعر..

- أتظنينني أبله؟ لقد لاحظت برودك وعنادك الناقص. أنت امرأة جميلة كوانتين.. ولكنك باردة كالثلج!

ارتدّت المرأة الجالسة على المائدة المجاورة لتنظر إليهما.. فارتعش صوت كوانتين التي حاولت جادة الحفاظ على هدوئها:

- أرجوك ماكس، لا داعي إلى التصرف على هذا النحو.

- لا؟ وهل أنت خائفة أن يعرف الجميع أن مظهرك المثير لا تتعدى الإثارة فيه بشرتك؟

أغمضت كوانتين عينيها من الشعور بالخزي.. مع أنها علمت أنه لن يكون سعيداً بقرارها، فهي لسبب ما، ظنته سيوافقها الرأي.

سمعته يهمس لها:

- إغماض عينيك لن يغير الأمور!

جعلها تحرك المائدة بحدّة تفتح عينيها، فوجدته واقفاً وعلى شفتيه تكشيرة:

- بصراحة.. أعتقد أنك باردة عاطفياً.

وارتد على عقبيه وخرج من المطعم.

تمنت كوانتين لو يتوقف جسمها عن الارتعاش، وتجنبت نظرات الناس حولها.. يا إلهي! يا لها من فضيحة فظيعة! ظنت أن ماكس محترم لطيف ولكنه طوال الوقت كان يفكر في تلك الأمور الرهيبة عنها.. إنها باردة، أنت آلاً.. باردة عاطفياً.

ظهر ساق راح ينظر إلى مكان ماكس الفارغ:

- هل أنهت المدموزيل الحساء؟

- وجدت أنني غير جائعة.. هل من مانع إن ألغيت ما تبقى من طلبنا ودفعت ثمن ما قدمتموه فقط؟

وقفت مترنحة، والتقطت حقيبتها.

ما إن خرجت من المطعم حتى وجدت نفسها تتوجه إلى شقتها بخطى سريعة وكأنها تركض، أحست كأنها حيوان جريح بحاجة إلى مكان مختبىء فيه ليلعق جروحه.. لكن، كان في داخلها خوف من أن يكون في قوله بعض الحقيقة. فهل قدرها أن تبقى باردة دائماً؟

تحب كوانتين شقتها رغم صغرها.. الإيجارات في مانهاتن مرتفعة بحيث لا تستطيع تحمل نفقات منزل واسع.. ولهذه الشقة الصغيرة سحرها الخاص المميز. إنها في بناء قديم، وفيها مدفأة رفها رخامي وفيها غرفة نوم واحدة مع نافذة تطل على نهر هدسن. فرشت كل غرفة بذوق وأناقة وبساطة.. كانت كوانتين تحب مزج التصاميم والأزياء: أثاث حديث مع سجاد شرقي.. كرسي هزاز محفور مزخرف قرب مقعد فرنسي ضخم مزدوج.. قماش متنعم بالزهر الصغير، أمام رسمات هندية ضخمة وجريئة.

جلست على مقعد البيانو تنظر كئيبة إلى اللوحة فوق الأريكة.. نعم هي صغيرة ولكنها غالية الثمن، لوحة لطيور رُسمت بألوان مائية،

رسمها فنان أميركي معروف.. الفن الحديث، أحد اهتمامات كوانتين. طالما استمتعت باقتناء اللوحات الجميلة.. أما الآن، فبدت لها تلك المتعة مصطنعة، لا ميزة فيها. فما جدوى شقتها الجميلة وكنوزها فيما حياتها الحقيقية تفتقر إلى الحب والعاطفة؟

قلقت، وذهبت إلى المطبخ حيث ملأت غلاّية الماء لتعدّ فنجان قهوة.. ربما ماكس وسولين على حق بشأنها.. وهذه فكرة مخيفة مدمرة.. إنها تبعد الرجال عنها فعلاً، إذ لم تستجب قط حقاً لأي كان.

ولا يهم أن يثبت ماكس في النهاية أنه بغيض كريه، فهو الأخير في صف طويل من الأصحاب الذين تخلت عنهم حين أصبح اهتمامهم ثقيل الوطأة.. ظنت أنها بهذه الطريقة تجنّب حياتها التعقيدات وتترك قلبها حراً من أية ارتباطات.. ولكنها الآن أدركت أنها كانت تتجنب الحب والاقتراب من أي رجل.. «أنت خائف من عيب ما يمنعك من إيجاد المرأة المناسبة التي ستملأ قلبك، منزلك، وفراشك» اقتحمت الكلمات تفكير كوانتين مع ارتفاع صوت صفير غلاّية الماء.. هذا ما قالته لخال كاترينا الوسيم زافي.. لأن له علاقات مع نساء عديدات.. لقد ظنت أنها أذكى من اللازم لأنها شرّحت خفايا نفس شخص غريب.. ولكنها الآن ترى أن هناك دافعاً آخر جعلها تتكلم.. لقد ربطت في لاوعيها بين نسائه الكثيرات وبين صف الرجال الذين خرجت معهم، ونقلت مخاوفها إليه. إنها هي التي تخاف أن يكون هناك حاجز عاطفي يمنعها من إيجاد شريك لها.. هي الخائفة أن يكون في قلبها فراغ لن يشغله أحد أبداً.

لم يمنعها البخار المتصاعد من غلاّية الماء من الارتعاش.. هل افتقارها إلى الثقة بالرجال هو ما يجعلها تخشى العلاقات الحميمة؟ أم لعلها خُلقت باردة؟ سكبت القهوة في الفنجان كرجل آلي.. لا تطيق التفكير في الأمر.. فإن كان البرود مؤصلاً في عظامها، فالمستقبل إذن يمتد أمامها كسطح القمر، أجرد، كئيب، بارد، وأسود.

رن جرس الهاتف بحدة، فدخلت إلى غرفة نومها، إلى التجويف الصغير حيث منضدتها: آلو؟

ـ كوانتين؟ أهذه أنت؟ أنا غراي نورثوود.

ـ أجل هذه أنا.. كيف حالك؟

حاولت ضخ بعض الحماس في صوتها.. فلن يفيدها أن تبدو باردة حين يكلمها رئيس تحرير مجلة وطنية.

ـ نحن على ما يرام.. يتلقى مقالك عن السيرك الإطراء!

لكن الإطراء لم يدفىء قلبها: هذا جيد.

ـ لقد طرأ شيء جديد.

في صوته إشارة مبطنة سرعان ما لاحظتها كوانتين.. فرؤساء التحرير المشهورين لا يتحمسون دائماً هكذا.. فقنبلة تحت مقاعدهم لا تحرّك فيهم ساكناً.

سألت: «ما هو؟»

ـ لقد وافق كزفيار ريشينيك على إجراء مقابلة صحفية.

ـ كزفيار ريشينيك؟

ـ أمر رائع، أليس كذلك؟

ـ لا أصدق.

كزفيار ريشينيك رسام دانمركي موهوب كثيراً، تحتل رسوماته الأمكنة المميزة في المتاحف الرئيسية، ولكنه منعزل عن الناس ولا يعرف عنه أحد شيئاً.. أما أمر لوحاته فيتولاها وكيله نيابة عنه، وأما الرسام فيرفض أي اتصال بالاعلام. وإجراء مقابلة معه حسب المقاييس الصحفية كرمي عقد من الألماس في حضنها.

ـ ما رأيك؟

ـ أمر رائع غراي.. إنها مهمة عظيمة.

ـ إنهم يتشوقون إليها من هنا حتى لوس أنجلوس.

ـ أراهن على هذا.

إذن لم توكل المهمة إلى أحد حتى الآن وثمة أمل كبير أن تُوكل إليها هي.. يعمد غراي إلى أرجحة المهمات أمام عيني كل العاملين لحسابهم، ليرى الأفكار التي يخرجون بها.. من كانت أفكاره هي الأصوب عُهد

إليه العمل . وبدأت تفكر بطريقة التقديم . . الرجل وفنه؟ كزفيار ريشينيك . . الرجل المنعزل؟

ـ حسناً . . استمعي بوقتك في هذه المهمة .

ـ من . . أنا؟ تريد مني أن أتولى المهمة؟

ـ أنت من طلب حضورك .

لم تستطع للحظة الكلام، ثم: «عمّ تتكلم غراي؟»

ـ قلت لك لقد طلب كزفيار ريشينيك بشكل خاص أن تكوني أنت من يجري معه المهمة .

ـ غراي . . هل هذه مزحة؟

لماذا يطلبها كزفيار ريشينيك شخصياً؟ . . لم تكتب العديد من المقالات عن الرسم لأنه بعيد عن اختصاصها . . في الولايات المتحدة، وأوروبا، من الصحافيين من هم أنجح منها بكثير فلماذا هي؟

ـ أنا لا أمزح . . اتصل بي وكيل أعماله الذي قال إن ريشينيك قرأ مقالتك عن السيرك المتنقل، وهو يريد منك أن تجري معه مقابلة في منزله في الدانمارك .

ـ وماذا في مقالة السيرك ليقتنع بإجراء مقابلة؟

ـ لا أدري . . ربما أعجبته الرسومات الصغيرة، وفكر أنك ستكونين متعاطفة معه . . تعرفين كيف: فنان يكلم فناناً آخر .

سحبت كوانتين نفساً عميقاً:

ـ الردّ هو نعم . . متى أبدأ؟ وعلى أي طائرة حجزت لي؟

تردد صدى ضحكة غراي الصحفية في الهاتف:

ـ أنت عاملة سريعة!

ردّت كوانتين:

ـ لا . . بل لا أريد أن أمنحه فرصة لتغيير رأيه .

* * *

٣ ـ نافذة على القلب

عندما مر الناكسي بالبوابة الحديدية الكبيرة المزخرفة أمام المنزل الحجري الكبير، فكرت كوانتين أن كزفيار ريشينيك قد اختار موقعاً جميلاً ومنعزلاً ليسكن فيه . . لقد اجتازت أميالاً عدة في شمال كوبنهاغن وشاهدت المناظر المتغيرة، ففي البدء مباني المدينة القديمة وبعد ذلك الشقق السكنية المرتفعة في ضواحيها . . ثم منازل الريف العائلية . وأخيراً الغابات الكثيفة التي تنتشر فيها قصور البارونات . . حينما التوى الطريق بين الأشجار الباسقة الضخمة، لمحت كوانتين بين الحين والآخر سطح بحر الشمال المغطى بالزبد الأبيض الذي كان يموج باضطراب تحت سماء رمادية مكفهرة بالغيوم، والساحل السويدي يلوح وكأنه إصبع سوداء في الأفق .

إنها بداية شهر تشرين الثاني، بعد أسبوع واحد من اتصال كزفيار ريشينيك الهاتفي . في هذه الفترة أمضت كوانتين الوقت في دراسة كل ما أمكنها الحصول عليه عن كزفيار ريشينيك بشكل خاص، وعن الدنمارك بشكل عام . . وكان عملاً مخيباً . . وعندما انتهت، كان بإمكانها كتابة كل تاريخ الدنمارك، لكن مجرد جملة قصيرة عن الفنان المراوغ . . كانت صور فوتوغرافية عن لوحاته منشور في كل المجلات الفنية ولكن لا صورة واحدة له أو لمنزله . . وكان وكيل أعماله في نيويورك مطبق الفم في ما يتعلق بزبونه الشهير، مع أنه مهذار إذا ما تعلق الأمر بلوحاته . . قال إن كزفيار وافق على إجراء مقابلة لكنه رفض التعاون معها .

قال: لم يعطني كزفيار الإذن بالبوح بأي شيء .

فكان أن ظلت كوانتين جاهلة كل شيء عن حياة الرجل الشخصية إلا أموراً قليلة.. تلقى تعليمه في الدنمارك وفي الولايات المتحدة.. وهو في السادسة والثلاثين غير متزوج يقيم في الدنمارك، أما عمله فتعرف عنه أكثر مما تعرفه عن حياته الشخصية، فلوحاته تُظهر تأثره بالمدرسة التكعيبية، أما أعماله الأخيرة فتُظهر الفلسفة الإنسانية. وككل فنان حقيقي، كان يستبق زمنه.. كان عامة الناس قد ملّوا «الروائع» التي كانت تبدو كرسم الأطفال بأصابعهم.. ولكن رسومات كزفيار ريشنيك التي ترسم مناظر الدانمارك وأناسها، مع التركيز والوضوح والنوعية أصبحت مشهورة بين جامعي روائع الفن والقيمين على المتاحف.

ولكن هذه المعلومات غير كافية كأساس لمقابلة هامة.. ومهما حاولت كوانتين أن تشكل استراتيجية عمل فهي ستواجه ثغرات كبيرة في خططها. كانت لائحة الأسئلة قصيرة وأفكارها قليلة وغير متوازنة.. وعليها أن تلعب لعبتها، وهذا تقدم لا تحبه أبداً.. إن سبب نجاحها كصحفية البحث الدقيق والغني بالمعلومات التي تجمعها عن كل موضوع تكتب عنه.

توقف التاكسي أمام درجات المنزل الحجرية، واستقامت كوانتين وحاولت رسم ابتسامة على وجهها، فهي لم تقرر ما هو الأسوأ.. مواجهة كزفيار ريشنيك المجهول لها، أم إظهار لطفها رغم تأثير السفر الجوي عليها.. فها هو النشاط الذي كان يسري في شرايينها في الأسبوع الماضي يهجرها. نقدت السائق أجره أو بالأحرى تركته يختار ما يشاء من مال من يدها المنبسطة.. فهي لم تتمكن حتى الآن من تمييز العملة.

بدت واجهة المنزل الفخمة بارزة مخيفة، وكان الظلام يرخي سدوله.. بدت الحجارة الرمادية الضخمة ونوافذ المنزل ترفل في ظلال قاتمة تضفيها عليها الغابة المحيطة بالمنزل.. كانت أوراق الأشجار قد تساقطت تقريباً، والريح الباردة الرطبة تصفّر بين الغصون العارية في صوت مخيف في عتمة المغيب.

ارتجفت كوانتين بسبب هبوب ريح دفعت بخصلة من شعرها إلى

فمها.. ما الذي تدفع نفسها إليه؟ للمرة الأولى تفكر في أن كزفيار ريشنيك قد يكون ناسكاً منعزلاً لأن فيه خطباً ما.. راحت أفكارها تأخذها إلى ما لا ينتهي من احتمالات ما قد تكون عليه شخصيته... ربما هو إنسان مشوّه، أو لعل في جسده عيب ما.. طافت صور «الأحدب نوتردام» في تفكيرها.. وتذكرت قصصاً عن «جاك السفاح».. فهل ستمضي الأسبوع القادم بمفردها مع وحش من نوع ما؟

انحنت بقلب صاخب تلتقط حقائبها، فانسلت حقيبة يدها عن كتفها ووقعت على الأرض المرصوفة بالحصى قرب مداسها العالي الساقين.. كانت تستعيدها حين أتاها صوت رجولي عميق وبلكنة أجنبية:

ـ أهلاً بك في الدنمارك.

رفعت كوانتين رأسها فاتسعت عيناها وانقطعت أنفاسها فجأة. أحست برعب وكاد يغمى عليها.. فخال كاترينا «زافي» واقف على درجات المنزل الحجرية وهو كما تذكره، طويل، نحيل كإله الشمس. إله اسكندنافي عيناه زرقاوان كسماء الشمال، وشعره أشقر كألوان الشمس المنعكسة فوق الجليد.. كان خصلات شعره حتى في ظل الرواق المعتم بريق الشمس.

سألت كوانتين بحدّة:

ـ أنت... ! أنت! ماذا تفعل هنا؟

نزل العم زافي الدرجات:

ـ ألم تحزري حتى الآن؟

أحست بالضعف وكأن ركبتيها تحولت إلى سائل:

ـ أحزر..؟

نعم ما زالت تذكره ولكنها نسيت مدى تأثيره فيها.

ـ أنا دهش مدام أزميرالد لأنك فشلت في تكهن من أكون.. ألم تدركي أنني كزفيار ريشنيك؟

أصبح واقفاً الآن أمامها وعيناه الزرقاوان ساخرتان.. كان يرتدي

سروالاً من الجينز عليه بقع ملونة، وكنزة سوداء مرفوعة الأكمام، تكشف عن ساعد قوي العضلات مغطى بشعر ذهبي.

بدأ تفكير كوانتين يجلو وهي تحاول تأليف رد مناسب.. وبدأ كل شيء يتضح.. الآن فهمت الصلة بين السيرك وطلبه أن تجري هي المقابلة معه.. تذكرت كم بدا مضطرباً عندما أخبرته عن لوحاته وهي في دور العرّافة، وتذكرت كم اطمأن قلبه عندما فشلت في تحديد أصله والمكان الذي أتى منه.. وتساءلت بعد كم من الوقت تعرّف إلى مدام أزمير الد.. هل تحدثت كاترينا عن السيدة التي قابلتها والتي ترسم الصور؟ هل تذكر الزوجان رايدلي اسم المجلة التي تكتب فيها؟ لعله لم يعرف من هي مدام أزمير الد حتى قرأ المقالة، وشاهد رسمة ابنة أخته؟

كانت كوانتين تشعر عدا الارتباك بالإحباط.. فالتفكير في أن الرسام الشهير والناسك الكبير كزفيار ريفنيك كان متأثراً بمقالتها بحيث اختارها حصرياً لتقابله، أمر.. والتفكير في أن خال كاترينا «زافي» كان وراء التخطيط أمر آخر.. لم يكن لدى كوانتين الوقت لتحلل دوافعه، ولكنها تشك في أن الدوافع لا تشمل سمعتها كصحفية ناجحة.. أخيراً استعادت سيطرتها على زمام نفسها وتكلمت:

ـ يبدو أن كرة مدام أزمير الد السحرية فقدت إحدى دوراتها.

التقط كزفيار ريفنيك حقائبها.. وسأل ضاحكاً:

ـ اعترافات قارئة الطالع؟

ردت وهي تتبعه إلى الداخل: «اعترافات قارئة الطالع السابقة».

لفتت به إلى ردهة طويلة.. مرا بغرفة جلوس مفروشة ببسط عجرية مبهرجة الألوان وأرائك جلدية عميقة.. ثم مرا بغرفة طعام فيها مائدة ضخمة من خشب الورد، وبغرفة استراحة فيها منضدة من خشب التك، وجدران مغطاة بالكتب.. تساءلت كوانتين عما إذا كان كزفيار ريفنيك يعيش في هذا المنزل الضخم بمفرده.. فعدا الطابق الرئيسي هناك طابق ثان نوافذه بارزة إلى الخارج.

فتح لها باب غرفة نوم، ووضع الحقائب في الداخل:

ـ أظنك ترحبين بالاغتسال والراحة بعد رحلتك.

هذا ما ترغب فيه فعلاً.. لكن هناك ألف سؤال وسؤال يدور على طرف لسانها.. وبدأت تقول:

ـ أجل.. لكنني أريد أن أسألك بضعة..

راوغها برقة:

ـ أراك وقت العشاء.. في تمام السادسة.

وتركها.. بدا طيفاً طويلاً رشيقاً عريض المنكبين يمشي في الممر برشاقة حيوان مفترس.

دخلت إلى الغرفة، وأغلقت الباب وراءها.. جلست على حافة السرير مرتعشة تنظر إلى ما حولها.. في الغرفة سجادة زرقاء سميكة، وسرير خشبي مغطى بلحاف أبيض محشو بالريش، وثمة خزانة مرتفعة على أحد الجدران، وفي مواجهتها باب الحمام الذي رأت منه مزيجاً من الأزرق والأخضر في بلاط من السيراميك الإيطالي.

كانت غرفة جميلة.. ولكن كوانتين غير مستعدة للإعجاب بها.. فما زالت عاجزة عن التصديق بأن الخال زافي انقلب إلى كزفيار ريفنيك، وشعرت بالرعب لمقابلته مرة أخرى.. في مكان ما على الطريق، ستضطر للاعتذار عن تصرفها معه كعرّافة.. وهذا هو التصرف المتزن الوحيد الذي قد تفعله بعدما قاله له.. ولكن لا يحق له، بسبب ما فعله به، أن يمررها بنفق العقاب.

خلعت معطفها وقبعتها، وبدأت تفرغ حقائبها، وراحت تتساءل: ترى هل سيسمح لها بإجراء مقابلة؟ لماذا يقرر رجل أخفى هويته عن العامة أن يكشف عن نفسه فجأة؟ لم تستطع تحليل دوافعه.. لا يُعقل أن يكشف رجل منعزل مثله عن نفسه من أجل معاقبة قارئة طالع جريئة.

هزت رأسها إحباطاً ثم قررت أن تستحم وتغير ملابسها قبل موعد العشاء.. فهي كمعظم النساء، بحاجة إلى الشعور بأنها مرتبة، جذابة، حين تواجه رجلاً وسيماً.

كان العشاء في غرفة الطعام الرسمية، قدمته امرأة صغيرة القد

مستديرة اسمها أيملي، وهي تتكلم الإنكليزية بطلاقة كمعظم السكندنافيين الذين قابلتهم كوانتين. كانت المائدة مجهّزة بخزف صيني أبيض فاخر، وبأدوات فضية، وكؤوس كريستالية طويلة أنيقة. جلس كزفيار قبالة كوانتين، بينهما شمعدانات فضية، يضفي نورها بريقاً برونزياً على شعره الذهبي. حمدت الله لأنها ارتدت فستاناً حريرياً واسعاً بلون الكهرمان الأصفر القاتم.. ولأنها عقصت شعرها الأسود في إكليل فوق رأسها، واعتنت بمكياجها.

عندما قدمت ايملي حساء من القطر اللذيذ.. قررت كوانتين، والمقابلة الصحفية تحتل الصدارة في تفكيرها، أن تطرق الموضوع فوراً:

- أخبرتني كاترينا أنك خالها، سيد ريشنيك..

- لماذا لا تناديني زاڤي؟ فبعدما تناقشنا في شؤون حياتي منذ زمن غير بعيد، لا أرى حاجة للرسميات.

ابتسمت له: أحس أنني مدينة لك باعتذار لأنني كنت... كنت..

- بغيضة؟ هل هذه هي الكلمة بالضبط؟

هزت رأسها موافقة، وشفتها السفلى بين أسنانها، فأردف ببرود:

- وماذا عن كلمة قلة الأدب؟ هذا عدا الفظاظة والإزعاج.

اعترفت بلهفة:

- مذنبة.. مذنبة في كل الاتهامات.. أنا لم يسبق أن كنت قارئة طالع ولم أكن أعرف ما أفعل.

- حقاً؟ كدت تقنعيني.

- هذه هي المشكلة.. لقد كدت أقتنع أنا نفسي أيضاً.. بعد فترة أحسست بالسلطة والقوة.. وعندما دخلت أنت، انجرفت..

- ومن أين أتتك تلك الأفكار؟

لم تستطع الإدلاء باعتراف كامل ولكنها مدينة له بتفسير:

- لديك ابنة أخت ثرثارة.

- أجل.. هي مثر وربع، ولكن لها أكبر فم في البلاد.. عندما

ولدت قالت أختي إنها صرخت صرخة كانت أعلى من صرخات كل الأطفال في غرفة الحضانة مجتمعين.. ما من سرّ عائلي يسلم حين تعرف به كاترينا.

ابتسمت كوانتين، وهي تتذكر كاترينا:

- إذن هي من راحت تثرثر عني؟

- تثرثر؟ بل على العكس.. إذ أفاضت وأسهبت، فقد أمضينا أمسية كاملة نسمع كل شيء عن السيدة التي التقتها وهي ترسم صوراً رائعة.

- لقد أحببت أن أرسمها.. ولكي أساعدها على الاسترخاء، طرحت عليها بضعة أسئلة.. تحدثت كثيراً عنك.. وعرفت أنك «تصنع» الصور.. لذا لم يكن صعباً أن أكتشف أنك رسام.

- وذلك الكلام عن اللوحات الشخصية؟

- سمّ ذلك إن شئت وثبة خيال مبدعة.

- لاحظت أن مخيلتك جامحة.

حاولت أن تبتسم له فأضاف بقسوة:

- وعن النساء؟

سيكون تفسيرها لما قالته عن حياته العاطفية صعباً، فاختارت كلمات مناسبة:

- أخبرتني كاترينا أنك تجلب معك حين تزورهم زوجات عدة.

بدا الذهول عليه:

- زوجات خال؟

- الخالة انغريد.. الخالة فلورا..

التوى فمه إلى جانب واحد:

- أوه... زوجات الخال.

- ولم أكن بحاجة لأكون نابغة لأعرف أنك غير متزوج و.. و..

- عابث؟

- شيء من هذا القبيل.

- وماذا عن التحليل النفسي؟

تورد وجهها: مجرد إلهام سأندم عليه طيلة حياتي.

بدا، ويا للراحة، متسلياً إذ جعلت ابتسامته خطوط وجهه الصارمة طفولية تقريباً..

- أتقول إن سلطة مدام أزمير الد زالت؟

- نعم.. وكم أود لو أنسى تلك التجربة.

دخلت ايملي تحمل طبقاً كبيراً فيه شرحات لحم مزينة بالتفاح والخوخ المجفف، وعدة أطباق خضار طيبة الرائحة فصمتا حتى أزالت أطباق الحساء ولكن بعد خروجها تكلم زافي:

- أخشى أن تكون آسية يصعب نسيانها.

حاولت تغيير دفة الموضوع بسرعة:

- هل تعيش هنا بمفردك.. زافي؟

تكورت شفتاه سخرية:

- وهل بدأت الصحفية باستقصاء المعلومات؟

نظرت إليه بارتباك.

- لقد دعوتني إلى هنا لهذا السبب بالذات.

صمت لحظة ثم راح يملأ طبقه باللحم والخضار.

- وهل لديك محظورات أخلاقية شخصية بالنسبة لعملك؟

- محظورات شخصية؟

- لاحظت أن زملاءك في المهنة يفتقرون إلى القدرة على كتمان السر، والأمانة والشفقة.

أضفى ضوء الشموع ظلالاً على جانب وجهه، زاد من إبراز خط العجرفة فوق فكه.

نظرت كوانتين إلى الطبق الذي قدمه إليها.. لم يكن في صوته رنة خاصة، ولكن المرارة التي ظهرت على وجهه بسرعة صدمتها فافترضت أن عليها عدم الاستغراب من قسوته في معاملة الصحافيين.. ولكنها لم تتوقع أن يكون هجومه مباشراً وقاسياً.

قالت بحذر:

- نجد في كل مهنة من لا يمكنك الوثوق بهم.

ارتفع حاجب ذهبي وقال ساخراً:

- كان عليك أن تكوني دبلوماسية، لا صحافية.

قضمت قضمة من اللحم وراح تفكيرها يفتش بسرعة عن دفاع تدافع به عن مهنتها.

- يعرف بعضنا أن علينا مسؤولية حماية من نكتب عنه من تأويلات غير مرغوبة، وإشاعات زائفة. ولكننا نحاول دائماً أن نطلع الناس على الأخبار.. أما المحافظة على التوازن بين الأمرين فغير سهل ولكننا نحاول.

سخر: «تصورينها مهنة نبيلة».

تصاعد غضب كوانتين:

- وأنت تصورنا وكأننا ديدان الأرض! أوليس هذا موقفاً متطرفاً؟

- رأيت بالتأكيد ما يحدث لمن تصبح حياته مفضوحة أمام عامة الناس. يصبح ملاحقاً حتى الموت بالمراسلين والمصورين الذين لا يهمهم غير التفاصيل الحساسة في حياته.. الناس لا يريدون معرفة مقدار ما يقدمه رجل إلى الإنسانية.. بل هم تائقون إلى الشائعات، وجائعون إلى أية معلومة عن زوجته وأطفاله، وعن طعامه وشرابه وعن الحب وكيف يحب.

وضعت كوانتين شوكتها بصوت مرتفع تسوّد نار اللهفة عينيها الرماديتين..

ردت: «الصحافيون يكشفون أيضاً الفضائح الرئيسية ويطلعون الناس على المسائل الرئيسية.. بدوننا سيموت العالم شوقاً للأخبار».

قال ساخراً: «يا لهذه اللهفة الحادة».

ضاقت عيناها: «ما دمت تكره الصحافيين إلى هذا الحد، فلماذا طلبت هذه المقابلة إذن؟»

جمدت عيناه الزرقاوان:

- أسبابي خاصة بي.

التقطت الغمز وراء كلماته:

- سأكتب الأشياء التي أراها بصدق.

- بل ستكتبين يا آنسة بورنيت ما أشاء أنا.

أعطى استخدامه اسمها الأخير بحدة الانطباع المطلوب. فقالت ترمي الكلمات في وجهه:

- هذا مخالف لآداب المهنة الشخصية.

هز كتفيه: إذن، أخشى أن تكوني مضطرة للرحيل في الصباح الباكر.

ارتاعت من فكرة خسارة المقابلة:

- لكن هذا أمر جائر..! تجعلني أسافر كل هذه المسافة ثم ترفض المقابلة في آخر دقيقة!

قال برقة: «وأنا أعتقد أن من غير الإنصاف أن تكشفي عن أوجه عدة من حياتي الشخصية للناس».

- إن لم يكن لها تأثير على فنك ولوحاتك فلن أكشفها. أنا لا أكتب لصحف الإثارة، ومن يقرأ مقالاتي جمهور مثقف يعرف معنى القراءة ويهتم بالفن في العالم.. و.. أنا لا أريد أن أعرف كيف تحب..

كانت تعض لسانها لجرأتها.. فقد لاحظت بريقاً في عينيه لا علاقة له بنور الشمعة المتحرك.

سأل بصوت ناعم مخادع:

- لا؟

حاولت كوانتين أن تُظهر عدم مبالاتها: لا!

- ألا تعتقدين أن التجربة تغني مقالك؟ الحب على أي حال دافع هام للرجال.

انتقلت عيناه من وجهها إلى فتحة باقة فستانها بقسوة متعمدة فتورد وجه كوانتين.. إنه يتلاعب بها. قرأت التسلية على وجهه فقالت بحدة: «أنا جادة في عملي».

راقب البريق الغاضب في عينيها والتورّد على خديها:

- عما تريدين الكتابة؟

- عن فنك وعما دفعك إلى العمل وكيف بدأت.. وما يؤثر في رسمك.

- دون النبش في ماضيّ بحثاً عن التفاصيل؟

- أجل.

- وهل هذا وعد؟

- أجل.

- وبما أنك فرد مسؤول من أفراد مهنتك تنوين الحفاظ على هذا الوعد؟

لم تتردد: «أجل».

لم تجد غضاضة في الموافقة على شروط زائي، فهي كما قالت غير مهتمة مهنياً بتفاصيل حياته الخميمة. فقد اتفقت مع رئيس التحرير على أن يكون التركيز على العلاقة بين الرجل وفنه، والموضوع هنا واسع بحيث لا يترك لها مجالاً كبيراً للمناورة.

عندما تناولت كوب العصير ظهر عبوس طفيف بين قوسي حاجبيها الداكنين، فجدالهما عن شرف المهنة بين الصحافيين وإصراره على أن تعده بحماية خصوصياته، يدل على أن لديه ما يخفيه.. سرّ من نوع ما في ماضيه.. ثمة أسئلة أخرى لم يكن لها ردّ.. فلماذا اختار الآن مقابلة صحفية؟ ولماذا أرادها هي؟ لماذا هو قاس مع المراسلين والصحافيين؟

نظرت إليه من فوق حافة كأسها تراقب يديه القويتين وهما تسكبان المزيد من اللحم.. عرفت أنها ستفتش عن أجوبة لتلك الأسئلة.. وهو عن طريقة ما، فالفضول الذي يجعلها صحافية ناجحة لن يطفئه مجرد وعد.. معرفة ما الذي يدفعه للمضي في العمل، يعني إيجاد الأسباب وراء تحركاته وأعماله، ومصدر انفعالاته.. لقد وعدت بعدم استخدام التفاصيل الخاصة في هذه المقالة.. ولكن عليها أن تخزن كل معلومة مهما صغرت من أجل الاستخدام في المستقبل.

بعد العشاء احتسيا القهوة وتناولا قطعاً صغيرة من حلوى باللوز.

حين نهضا عن المائدة اقترح زاڤي أن يرافقها في جولة على المنزل.

كان المطبخ أول مكان اقتادها إليه وفيه وجدا أيملي تتخلص من بقايا العشاء.. كان لأيملي وزوجها دراغو الذي يعتني بالمنزل والحدائق، شقة متصلة بقسم المطبخ.

ما تبقى من الطابق الأرضي يضم غرف العائلة، إضافة إلى غرفة الجلوس وغرفة الطعام، والمكتبة وغرفة موسيقى صغيرة فيها بيانو صغير، وعدة غرف نوم. كانت غرفة زاڤي في غاية البساطة فيها سرير مزدوج وخزانة من خشب التيك وأريكة بدا وكأن أحداً لم يجلس عليها.

بدا طابع إحدى غرف النوم أنثوياً بلا شك، ففيها سرير مرتفع القوائم، وستارة وردية اللون، ومنضدة من خشب الجوز الجميل، وسجادة صينية فيها زهور ليلكية ووردية على أرض بلون العاج.

قال زاڤي: «إنها غرفة أمي».

ـ أمك؟

ـ لدي أم! ألا تعرفين هذا؟

ـ طبعاً.. دُهشت لأنها تعيش معك.

ـ إنها تملك هذا المنزل.

تقدم يقف إلى جانبها، وهما جنباً إلى جنب كان رأسها يصل إلى حدود ذقنه.. فلأنها امرأة طولها يبلغ مئة وخمسة وسبعين سنتمتراً لم تكن معتادة على رفع رأسها كثيراً لترى وجه رجل.

ـ هكذا إذن.

صدمها أن رجلاً قوياً شديد الرجولة مثل كزڤيار ريڤينك يعيش مع أمه.. وسمعته يقول:

ـ لكنها ليست هنا الآن. إنها مقيمة مع أصدقاء في كوبنهاغن وستلتقين بها قبل أن تسافري.

تدفقت الأسئلة إلى رأسها وهما يرتقيان الدرج.. هل يعيش هنا على الدوام؟ ألديه شقة في مكان آخر؟ إن من له اهتماماته وثقافته يفضل بكل تأكيد الإثارة التي توفرها المدينة.. تساءلت عما إذا كان هذا هو السبب

الذي يظهر غرفته وكأنها غرفة في فندق. يجب أن يكون عنده منزلاً أو شقة يستقبل فيها أصدقاءه ونساءه.

لم يكن لديها الوقت لتفكر في هذا، فقد فتح غرفة في نهاية البهو، وأدخلها إلى غرفة مظلمة. أضاء النور، فشهقت ذهولاً.. كشفت الأنوار في السقف عن مساحة واسعة تشمل الطابق كله.. الجدران بيضاء فوقها لوحات، والأرض خشبية سوداء مصقولة بالشمع، والغرفة مقسومة إلى قسمين أحدهما يشبه معرضاً للرسوم. من حيث كانت واقفة رأت أن كل اللوحات هي لكزڤيار، وهي لوحات شخصية.. أما الجزء الثاني من الغرفة، فمرسم فيه طاولتان خشبيتان وأمامه منصة مرتفعة تقف عليها «العارضة» ليرسمها..

ـ إنها رائعة.

ـ أتظنين هذا؟

كان واقفاً على مقربة شديدة منها بحيث تلامست ذراعاهما.. حاولت كوانتين خلال جولتهما في المنزل أن تتجاهل قربه منها.. لكن في هذه اللحظة بدا وكأن تياراً كهربائياً يسري بينهما.. أسرعت تخطو إلى الغرفة وكعباها العاليان يصدران طقطقة فارغة على الأرض الخشبية.

لاحقت صف اللوحات، وراحت تتوقف أمام كل واحدة منها مدة دقيقة تنتقل بعدها إلى الأخرى.. كانت تكهناتها كعرّافة مصيبة أكثر مما توقعت.. زاڤي، الذي ارتكزت شهرته على مناظر الساحل الدنمركي والحياة في الدنمارك تحول إلى مجال دراسة الوجوه البشرية، هنا وجه رجل عجوز تملأ وجهه الأخاديد.. وهنا وجه فتاة شابة، يلتقط فيها تلك اللحظة الهشة التي تتحول فيها الطفولة إلى نضج. وثمة امرأة تنظر بكبرياء من فوق أنفها إلى كوانتين، وولد صغير يتوسل إليها.. كانت العيون تحدّق إليها من كل أنحاء الغرفة، وتلحق بها أينما سارت. كانت التفاصيل في اللوحات دقيقة بحيث يبدو أن من فيها حي يرزق.

ارتدّت، فرأت أن زاڤي يراقبها وهو مستند بعدم اكتراث على إطار الباب.. يده في جيبه، وسترته المفتوحة تكشف عن قميص أبيض.

قالت بإعجاب: أظنها كلها ممتازة.. ستصدم نقاد الفن.

- أعرف.. فمن غير المفترض بالرسامين الجادين رسم لوحات شخصية.

- سيتساءلون لماذا غيرّت الاتجاه.

هز كتفيه وهو يدخل إلى الغرفة:

- لقد أصبح العالم بغيضاً لا نبدو فيه إلا مجرد جزء من حشد كبير.. حشد لا وجوه له من البشرية.. نحن مجرد أرقام تحشى بها الكومبيوترات، ولم نعد آدميين.. لماذا تعتقدين أن الناس متعطشون إلى المشاهير والتعلق بهم؟ لأنهم القلة التي تبرز من بين الجموع.

- لكنك لم ترسم لوحات للمشاهير.

- لا.. بل كنت أحاول التقاط ما في الرجل العادي.. العيون هي نافذة الروح.. والوجوه سجلات الزمن.

ثمنت كوانتين لو كان معها آلة تسجيل.

سألت: «أما زلت ترسم الصور؟»

- لا.

وصلت إلى الحمالة الأولى فراحت تنظر إلى الشكل الذي أمامها. وردت عليها النظرة امرأة جميلة رسمها ناڤي وهي مستلقية على الفراش، ذراعها فوق رأسها، والأخرى عند حافة السرير. ارتدت كوانتين إلى الحمالات الأخريات فإذا كل واحدة منها تحمل لوحة للمرأة الجميلة ذاتها في وضعية مختلفة.. بدا ثغرها آخر عريضاً وأنفها قصيراً، وخصلات شعرها شقراء وبشرتها ذهبية.. بدت حقيقية مثيرة، ولا تدري كوانتين لماذا شعرت بكراهية غير منطقية للمرأة «الموديل».

قالت بصوت مختنق قليلاً: «إنها جيدة، بل أكثر من جيدة».

- أجل.. تعجبني.. ڤاليسا «موديل» جيد.

ڤاليسا.. إذن، هذا هو اسم المرأة التي وقفت أمام كزڤيار كما تقف المرأة أمام حبيبها.. كل خط في كل رسم يتحدث عن امرأة واثقة من جمالها، وليس سراً القول إن معظم الرسامين يقيمون علاقة غرامية مع

موديلاتهم..

أوقفت كوانتين نفسها فجأة عن التفكير.. فما شأنها وعلاقات كزڤيار بموديله؟ إن تلك العلاقة لا تعني شيئاً لها، وبما أنها صحفية يتوجب عليها التعامل مع الوقائع لا مع التخيلات والأوهام.

آخر مرحلة حطا فيها الرحال هو البرج الصغير الذي كان فيه مطبخ صغير وحمام صغير، وسرير منفرد.. شرح لها زاڤي أن من عادته العمل حتى الثانية أو الثالثة صباحاً.. ويفضل أن يبقى في مرسمه بدل إزعاج سكان المنزل.

عندما كانا ينزلان الدرج تثاءبت كوانتين، ثم تعثرت قليلاً.. فأمسك ذراعها:

- هل أنت بخير؟

- متعبة فقط من جراء السفر جواً فوق المحيط.

قال بلطف: «آسف.. نسيت أن يومك كان شاقاً».

أحست كوانتين بيده على مرفقها، وبوجهه ينظر إليها عن كثب.. فقالت بسرعة:

- أنا بخير.

- لكنك ترتجفين!

ردت مقطوعة الأنفاس: «حقاً؟»

دنا منها أكثر فأكثر: كالعصفور.

سعت بخوف للابتعاد عنه وتقدمت الصحافية المنسية لتجدها:

- أنا.. هل هذا سكنك الدائم؟

ضحك برقة: «وهل يهمك الأمر؟»

اقترب أكثر فأغمضت عينيها بأسى، وقالت: أجل.

لكن ذراعيه التفتا حولها ببطء فانضمت إليه طائعة.. لقد عانقها العديدون من قبل ولكنها لم تشعر قط بهذه المشاعر القوية.. حركت لا إرادياً ذراعيها وعقدتهما وراء عنقه وراحت تدس أصابعها في خصلات شعره الطويل.. وأحست بالمشاعر تجتاحها وكأنها طوفان ذائب حار. ثم

تحرك زائي مبتعداً عنها. فوقفت حيث هي مسمرة في أرضها. وعيناها الرماديتان متسعتان وأنفاسها تخرج في وقع متقطع.

قال بصوت عميق أجش: «عمت مساء».

ارتجفت، فوضع إصبعه تحت ذقنها ليرفع وجهها إلى وجهه الذي يحمل تسلية متعجرفة:

- إذن.. هذا ما يحدث للصحافية الباردة، الذكية، حين تفقد إحساسها الموضوعي وبعد نظرها!

كانت كلماته كالصفعة على وجهها فارتدّت إلى الوراء:

- لا تكن مغروراً! ما زال بعد نظري سليماً.

- إذن، أعتقد أنك تتوقعين جواباً على سؤالك.. هذا إن لم تنسه.

رفعت ذقنها:

- لم أنس شيئاً.. هل هذا مسكنك الدائم؟

قال برقة مخادعة:

- لا.. عندما لا أكون هنا لا أكون كزفيار ريفينك.

***

٤ ـ إنها امرأة أيضاً!

الليلة السيئة تكون عادة عبارة عن كوابيس، وتململ في الفراش وتقطع في النوم، وقد عانت كوانتين من كل هذه الأعراض غير المريحة.. فهي لم تنم جيداً لأنها كانت تحاول تحليل آخر تعليقات زائي الغامضة.. ماذا قصد أنه لا يكون كزفيار ريفينك حين لا يكون هنا؟ وماذا يعني «هنا»؟ المنزل.. أم الدنمارك؟ وماذا «يكون» حين لا «يكون» كزفيار ريفينك؟ ماذا يصبح؟ «للموقف» طعم غير متطفي وكأنه قصة رعب «الهيتشكوك».. عندما لم تكن تضرب وسادتها لتسوّيها كان تفكيرها يعود إلى تلك اللحظة الأخيرة المثيرة، إلى العناق الذي يحمل وعداً بالمزيد من الخطر والمتعة، وعداً فتح باباً مقفلاً لجزء من نفسها لم تعرف بوجوده.

حين وقعت أخيراً في أحضان اللاوعي، كانت أحلامها مضطربة بأشكال غير محددة وبصور لا تتذكرها، لكن أثرها كان بغيضاً، حزيناً وموجعاً. استيقظت وهي تشعر بصداع وكانت دوائر سوداء تحدق بعينيها الرماديتين اللتين وجدتا أن غيوم اليوم السابق ابتعدت بفعل ريح خفيفة، وأن السماء ازدادت صفاء.

استحمت ثم ارتدت سروالاً صوفياً رمادياً وكنزة ناعمة بلون رمادي لؤلؤي يشبه لون عينيها. رفعت شعرها ووضعت كريم أساس تحت عينيها، وحاولت صوغ الأسئلة التي ستطرحها على كزفيار. أحست أنه تعمد من تصريحه ليلة أمس استفزازها. لقد حذرها بالابتعاد عن حياته خاصة ثم أدلى أمامها بمعلومات تسيل اللعاب.. فهل هذا امتحان لأمانتها المهنية؟ هل سينتظر الآن ليرى ما إذا كانت ستلتقط الطعم؟

عندما كانت تلتقط دفتر ملاحظاتها وسجلتها الصغيرة وجدت أنها هي قادرة أيضاً على لعب لعبة القط والفأر.. وستتصرف وكأنها لم تسمع تلك الملاحظة فقد يكون عدم اهتمامها كافياً للتخفيف من تحفظه.

تناولت فطورها بمفردها وكانت ايملي أخبرتها أن كزفيار استيقظ منذ ساعات، وهو في مرسمه.. حضرت نفسها للصعود إلى المرسم.. فتحدي الأسد في عرينه الطريقة المثلى التي عليها اتخاذها.. ثم صدمتها دقة التشبيه.. ففي كزفيار شيء من الأسد: الغرّة الذهبية.. المشية المهيبة والحذر الذي يمتاز به الحيوان المفترس.

وجدته يخلط الألوان الزيتية وكان تركيزه قوياً بحيث لم يستدر إليها حتى وقعت قدمها على قطعة خشب متحركة في الأرض.

قال: «صباح الخير.. هل نمت جيداً؟»

قالت كاذبة وكانت تأمل ألا يلاحظ العينان الفتيتان أثر القلق حول عينيها.

ـ نوماً عميقاً لا أحلام فيه.

ـ هذا جيد..

وعاد إلى ألوانه، فقالت وهي تجلس على مقعد خشبي مرتفع قرب طاولة عمله:

ـ هل تسمح لي بالجلوس هنا؟

هز كتفيه: «نعم، أنت على الرحب والسعة».

راجعت عيناها الموقف، وعرفت بالضبط بما ستبدأ مقالتها.. بوصف كزفيار ومرسمه الرائع.. ستذكر روعة الخشب الأسود المصقول الذي يكسو الأرض ويبريق الجدران البيضاء والعيون المرسومة المحدقة إليها من اللوحات المعلقة.. ثم وصف كزفيار الغارق في وهج دافىء من النور الذهبي المتسلل من الكرة في السقف.. وصفته كواتين وصفاً بارداً مهنياً: جميل الطلعة، فظ، عنيد، متصلب، رجل لا يلين بسهولة.

ـ هل أنهيت تحديقك إليّ؟

انتفضت كواتين ثم تورد وجهها، فشعرت بأن برودها المهني يتلاشى بسرعة تحت نظرته الصارمة، كان فيه ما يجعلها لا تنسى أنها امرأة.

قالت وهي تفتح دفتر ملاحظاتها بسرعة:

ـ أود أن أطرح عليك بعض الأسئلة، وإن لم يكن لديك مانع سأسجل الحديث.

ـ اطرحي ما تشائين من أسئلة.

كانت أسئلتها الابتدائية تقليدية: متى بدأ الرسم؟ بمن تأثر؟ ما ميوله في العمل؟ تحدث زافي بسهولة عن رغبته الطفولية في الرسم، وعن الأستاذ الذي لاحظ موهبته، وعن معهد الفنون الذي انضم إليه في كوينهافن واهتمامه بالمدرسة الواقعية في الفن، ونمو شهرته الثابت.

سألت: «كيف تشعر وقد حققت مستوى من النجاح يتخلى معظم الرسامين عن أي شيء ليحققوه؟»

رفع زافي فرشاته، ونظر من فوقها إلى النافذة، وكأنه يفكر في الرد على سؤالها.. ثم قال:

ـ إحساس مخيف.

ـ مخيف؟

ـ النجاح هو الوجه الآخر للفشل.. وهو حيوان متوحش يجب إخضاعه باستمرار ليبقى ويكبر وإلا خبا وأصبح عدماً.

ـ لكن لوحاتك معروضة في المعارض والمتاحف الفنية.. وهذه علامة للنجاح.

ـ قد يكون هذا صحيحاً إن كنت مبتاً ولكن ما دمت أتابع الرسم فسيحكم ما أفعله الآن على عملي السابق.. وإن لم أحافظ على مستوى عملي انتهت لوحاتي في مخازن المعارض.

كشّر فجأة ثم أردف:

ـ أستطيع سماع المنتقدين: «إنجازات كزفيار ريفيتك القديمة ممتازة ولوناً، طمسها بشكل مخزن عمله الحالي...» وما شابه من كلام.

ضحكت بعدم تصديق:
- هذا ما لا يمكن أن يحدث.
ارتفع حاجبه: «يا لها من ثقة».
كرهت كوانتين لونها الفاتح لأنه يظهر تورّدها بسرعة.
- لا أصدق أنك...
صمتت وهي تحاول الوصول إلى كلمة مناسبة..
- متواضع؟
- من خلال خبرتي.
- وما هي مدى خبرتك؟
كان في صوته ما يكفي من غمز جعل اللون الوردي في خديها ينقلب إلى قرمزي.. تنحنحت بغضب:
- يجلب النجاح معه شيئاً من الثقة.
- طبعاً.. لكن على كل فنان مهما كان مشهوراً أن يكون على قدر سمعته.. وأكون كاذباً إن لم أعترف بخوفي من الفشل.. وأنت تريدين أن أكون صادقاً.. أليس كذلك كوانتين؟
تساءلت عما إذا كان استخدامه لاسمها الأول أم رنة صوته هي التي حركت مشاعرها.. تململت في مكانها ثم غيرت دفة أسئلتها.. تحدثا عن نماذج عمله وأدهشها تشدده في عمله.. كانت معتادة على إطالة الوقت في رسم صغير، تغير خطاً هنا أو هناك، تفكر ملياً فيه، وتعود إلى دراسته مراراً تكراراً.. لكن كزفيار كان يعمل عدة أيام وليال ليتم لوحة.. واعترف أنه ينسى الطعام، والنوم، والراحة وأنه انهار مرة بعد ثلاثة أيام من الرسم المتواصل.
وجدت نفسها متأثرة بإخلاصه الواضح خلال عملها.. قابلت عدة مشاهير، وكل واحد منهم، كما لاحظت، كان حريصاً على الاحتفاظ بالعظمة من حوله، حتى افترضت أنها أمر ضروري.. وعرفت كذلك أن الخوف والتعاسة يرافقان الشهرة لكن ما من واحد ممن قابلتهم كشف عن شعوره بالخوف، ووجدت أنها تحترم كزفيار لأنه قادر على كشف

الحقيقة بشأن ما يقلقه.
بعد ساعتين من الحوار أبعدت مسجلتها ودفتر الملاحظات، وتوجهت إلى حيث يقف زافي فوجدته يرسم.. كان يرسم فاليا عوديل منحنية تغسل شعرها فوق المغسلة. كان الرسم غنياً بالدفء واللمسات المثيرة.
سألت بصوت بارد: «ماذا تعمل في الحياة الحقيقية؟»
- فاليا؟ إنها مضيفة طيران.
- ما أروع هذا!
- أهذا رأيك حقاً؟
لاحظت كوانتين كمال أصابعه الطويلة ودقتها في العمل. ستكون هذه الصورة إحدى الرسومات التي ستضمها إلى المقالة، دراسة لبديّ كزفيار وبقيتك الحساسين..
ردت شاردة الذهن:
- من المفترض أن تكون.
- طالما فكرت أن من الممل خدمة الناس بشكل متكرر.
- أقصد السفر.
- هناك مهن أخرى تتطلب السفر.. مهنتك مثلاً.. أنت تسافرين كثيراً.. أليس كذلك؟
- نعم أسافر كثيراً...
- هل معظم رحلاتك رائعة؟
اختطفت نظرته إليها أنفاسها، وقالت وهي تشيح بصرها عنه:
- أحياناً.. كانت بعض الرحلات متعبة.
- مثل ماذا؟
راقبته وهو يرتد إلى الوراء ليدرس الرسم.
- كالسفر وأنا مع أفراد السيرك.
نظر إليها بدهشة: أكانت سيئة إلى هذه الدرجة؟
- لقد سئمت حقول الحنطة والذرة ورؤية ما لا ينتهي من ريف

- أحب ذلك الجزء من الولايات المتحدة.. إنه غني بالتاريخ.. لقد جرت الحرب الأهلية الأميركية فوق حقول الحنطة والذرة تلك.

- لكنك لن ترغب في العيش هناك.

مدد جسده، ووضع فرشاته من يده.. وقال مفكراً:

- لا أدري.. مع أنني ترعرعت هناك على أي حال.

إن الأحاديث العادية قد تفضي إلى الأسرار التي كان يخفيها، فهذه المعلومة مثلاً غير معروفة.. ولكنها ستحتفظ بالمعلومة للمستقبل وستأتي نفع من هنا ونفع من هناك لتطابق في النهاية مكانها الصحيح من الأحجية.. تعيش شقيقته وعائلتها في ماريلاند ووالدته تمتلك هذا المنزل في الدنمارك.. فهل هو شخص آخر في ماريلاند؟ هل يستخدم اسماً مستعاراً؟ هل هذا ما يعنيه بقوله الغامض بالأمس؟

تساءلت كوانتين كم من الأسرار يختبىء في هذا المنزل؟ هناك غرفة نومه وأثاثها البسيط.. هل يحتفظ بأوراقه الخاصة في هذا البيت؟ لم تلاحظ مكاناً في المرسم قد يحتفظ فيه بسجلات أو يخبئها فيها. عندما وضعت دفتر ملاحظاتها وسجلتها على الطاولة الصغيرة قرب السرير تنهدت محبطة.. كانت الصحافية فيها تتوق إلى ردود على كل تساؤلاتها مهما كان السبيل للحصول عليها.. أما مبادىء سلوكها المهني فكانت تتمرد على فكرة التفتيش في أدراج متضدته وكأنها بوليس سري في فيلم من الدرجة الثانية عن الجاسوسية. قررت أن عليها الانتظار وجمع التلميحات والتصريحات حتى يثق بها كزفير.

ناقشا حول غداء خفيف من ستدويشات وسلطة الفن عموماً، وأبدى اهتماماً برسوماتها التي وصفها بالبارعة.. لكن كوانتين اعترفت:

- لكنني صحافية أكثر مني رسامة.

- لا بد أنك درست الرسم.

- كانت دراسة ثانوية في الكلية.. لقد أخذت درجتي الجامعية في

الأدب الإنكليزي.. كنت أفكر في التدريس.

- لكنك لم تمتهني التعليم.

- يوم تخرجي بعت أول مقالة لي إلى مجلة محلية في لونغ ايلند.. بعد ذلك وقعت في فخ العمل الحر.

- لا يستطيع أي كان العيش من عمل حرّ في الصحافة.

- كنت محظوظة.

- هل كتبت مقالات عن رسامين آخرين؟

- بعض الرسامين المبتدئين الذين يعدون بمستقبل زاهر.

دخلت ايملي تحمل صينية عليها إبريق قهوة وفناجين قهوة من خزف الصيني الفاخر، وضعتها على الطاولة بينهما.

شكرتها كوانتين، بعد خروجها ارتدّت فرأت زائي ينظر إليها بطريقة تثير الاضطراب..

سأل: «هل فكرت يوماً بالعمل كموديل؟»

سألت بحيرة: «موديل؟ تعني للمجلات؟»

- ربما.

- لا.. لم أفكر يوماً.

- لك وجه جميل.

إنه تقرير أمر واقع أكثر منه إطراءً. إنه حكم يطلقه فنان.. حكم مجرد.

قالت بتركيز: أفضل أن أكسب لقمة عيشي بذكائي لا بمظهري.

- أعتقد أن جمال جسدك يماثل جمال وجهك.

لم تعرف كيف ترد على هذا التعليق أو على رأيه بمزاياها الأنثوية..

أردف: مع أنك مختلفة عن ڤاليسا.

دار حول الطاولة لينظر إليها من زاوية أخرى.

تمتمت وكأنما لنفسها:

- هذا ما أرجوه.

أحست باضطراب بسبب نظرته الممعنة.

قال: «فاليسا إلهة جمال على الأرض.. أما أنت فقد تكونين القمر، فأنت باردة، هادئة، متأملة، صافية ومع ذلك، غامضة».

ـ وبعيدة المنال كذلك.

عاد إلى الجلوس:

ـ لماذا لا تعملين موديلاً لي كوانتين؟

نظرت إليه بذهول لأنها أدركت أنه جاد فعلاً.. لم يكن في قوله شيء من العبث، لقد كان يقدم حكماً فنياً وكأنها جماد في مخزن بيع أعجب بجماله وبرشاقة خطوطه..

قالت ببرود: «لست مهتمة بالعمل موديلاً».

سكب لنفسه فنجان قهوة:

ـ قد أجعلك مشهورة.

ـ ولست مهتمة بمثل هذه الشهرة أيضاً.

مال إلى الخلف والفنجان في يده..

قال: «اعترفي.. أنت لا ترغبين في الوقوف أمامي لأرسمك».

ـ وهل ترغب أنت؟

لامست ابتسامته عينيه: «إصابة عادلة!»

ـ حسناً.. هل ترغب؟

ـ قد أعترض لأن هذا سيكون مضيعة للوقت، وليس لأنني أخاف الكشف عن جسمي.

ـ أنا لست خائفة.

ـ بل على العكس.. الفكرة ترعبك.. كان عليك أن ترى عينيك حين نطقت بالاقتراح!

ـ لا شأن لك بي. ولكن لماذا اخترتني ما دام هناك عدد كبير من النساء يتوق إلى أن ترسمهن؟

ـ اخترتك لأنك مزيج من القسوة والضعف والمظهر الذي يروق لي.. حين سأرسمك سأتمكن من وضع كل هذا على القماش.

هزت رأسها نفياً:

ـ ليس حين.. بل أبداً!

ابتسم ابتسامة غامضة، وكان في عينيه بريق أزرق غريب.

ـ ستكونين موديلاً أرسمه، كوانتين.. في النهاية.

كاد تأكد كزفيار المطلق بأنها ستقف يوماً أمامه ليرسمها يهز رباطة جأشها المعتادة، بعد ذلك فقد الغداء طعمه، وبدا طعم حلوى الشوكولا الغني الشهي الذي قدمته إيميلي وكأنه نشارة الخشب. راح كزفيار يتحدث عن تقنيات متنوعة للفن، لكن كوانتين لم تعطه سوى نصف اهتمامها: أما النصف الآخر فقد كان يفكر بكلمة «في النهاية» ويتساءل عما يعرفه كزفيار عنها مما لا تعرفه هي عن نفسها.. شعرت بقشعريرة باردة تجتاح جسمها.

سأل: «أتشعرين بالبرد؟»

ـ أنا.. لا.. ليس حقاً.

وقف: «أنت جالسة منذ وقت طويل، لماذا لا تحضرين معطفك وتنضمي إليّ للقيام بنزهة؟ أخرج عادة لأتمشى بعد الظهر».

صحبها إلى الشاطىء الواقع وراء الأشجار التي تحيط بأملاك المنزل، وكان الهواء بارداً ولكنه منعش ولم يكن البحر معرضاً لهبوب الريح، لذا راحت المياه القائمة تعكس الشمس بشكل عشوائي برّاق.. لم يكن الشاطىء عريضاً وكانت الأشجار العارية من الأوراق ترمي ظلالاً طويلة على طريقهما، وبين الحين والآخر كانت أغصانها الرفيعة تكاد تلمس سطح الماء.. فوق رأسيهما راحت طيور النورس تدور وتصيح وتحلق بهما بعضها على أمل الحصول على شيء ما يتخلى عنه المتنزهان.

سألته بعدما سارا بصمت هادىء مدة خمس دقائق:

ـ أنت ترسم هذا المنظر دائماً، أليس كذلك؟

قال: «لقد حان دوري».

نظرت إليه بارتباك: «دورك؟»

ـ أن أجري معك المقابلة.

ـ آه.

ارتدت تنظر إلى ساحل السويد القاتم، فقال:
ـ أنت لا تحبين الكلام عن نفسك أليس كذلك؟
ـ لست شخصية شهيرة.
ـ لكنني أهتم بك.
نظرت إليه باستغراب، ثم وجدت أنه مهذب في طلبه، فقالت وهي تهز كتفيها: «لا بأس».
ـ هل أحببت دور العرّافة؟
التفتت إليه مجدداً بدهشة.. ثم أجابت ببطء:
ـ في البداية كنت خائفة.. ولكنني بعد ذلك بدأت أستمتع به.
ـ لماذا؟
رأت أنه لن يكتفي بأجوبة غير مقنعة:
ـ من المرح أن يكون المرء شخصاً آخر حياً بالتغيير. لقد نسيت أن كوانتين بورنيت موجودة.
ـ أليست شخصاً تحبينه؟
ـ تعجبني ولكن لها حدودها.
ـ حدثيني عنها.
كان غريباً أن تتكلم عن نفسها بصيغة الغائب ولكن ذلك أعطاها حرية الكلام وما كانت لتجرؤ عليها في صيغة مختلفة.
ـ إنها.. شخصية لطيفة، مخلصة، صادقة، تعمل جاهدة.
ابتسم كزفيار: «إنها أوصاف الكشافة».
نظرت إليه عابثة:
ـ قد تكون أيضاً فاتنة مفعمة بالبهجة أحياناً.. و.. أنثى بكل ما للكلمة من معنى.
ـ ومتى يحدث هذا؟
ـ حين تكون في حضور رجل يماثلها سحراً وجاذبية.
ـ إلا من هي معه الآن بالتأكيد.
قلدت لهجته المتجهمة: «بالتأكيد».

ـ وما هي حدود هذه المخلوقة الفاتنة؟
ـ إنها خجولة، لا تحب الأحداث الجديدة كثيراً.. وليست اجتماعية دوماً مع أنها تظن أن ذلك واجب عليها.
صمتت تفكر بشخصيتها، كوانتين بورنيت.. كان الأمر وكأنها تقف خارج نفسها وتنظر إلى داخلها، تصدر أحكاماً لا علاقة لها فيها.
أردفت: قد تكون نزقة الطباع حين تتعب، وغالباً ما تعجز عن التعبير عن مشاعرها.
صمتت برعب وهي تسمع نفسها تقول هذا.. لماذا تثرثر هكذا أمام رجل لا تكاد تعرفه؟ أخبرته في ربع ساعة أكثر مما أخبرها به في ساعتين من مقابلة مهنية.
ـ تابعي.
ردت بثبات:
ـ لا.. هذا كل ما عليّ أن أقوله عن كوانتين بورنيت.. فهي في الواقع شخصية غير مهمة.
ـ بل على العكس، أنا مفتون بها.
هزت رأسها:
ـ لا تفتن بها لأنها لا تستحق.
قال ساخراً: «واتهمتني بأنني متواضع».
ـ أنا فعلاً امرأة عادية.
رمى رأسه إلى الوراء وضحك، وكان الصوت عالياً أمام هدوء الشاطئ.
ـ إن المرأة التي تجرؤ على وعظي بشأن حياتي العاطفية بعد دقائق من لقائي بها.. ليست عادية أبداً.
ـ كانت غلطة.. فلننسها.
ـ سأنسى أمرها لو أخبرتني المزيد.
ـ عمّ؟
ـ عن عائلتك.

- يعمل أخي في مجال الإعلانات وهو يعيش مع زوجته في لونغ ايلند، نحن توأمان.

تمتم: أمر مذهل.. كواتنين ذكر.

هزت رأسها:

- نحن غير متشابهين أبداً.. أخشى أن أكون فريدة من نوعي. أمي وزوجها يعيشان في فلوريدا.. فستان تقاعد منذ خمس سنوات وقررا العيش في بلاد مشمسة على العيش في بلاد باردة.

- ووالدك الحقيقي؟

- لا أدري.

كان ذكر والدها يجفف حلقها دائماً.. إنه خارج حياتها منذ سنوات طوال.. لكن الألم باق والجرح لا ينتسى.

ظهر بعض ما شعرت به على وجهها أو في صوتها، فقد نظر إليها كزفيار بمكر، ثم غيّر الموضوع فجأة.

- وأصدقاؤك من الرجال؟

تعثرت كواتنين بالرمال، فأمسك ذراعها.

قالت: «لا شيء يقال».

أبقى قبضته الثابتة عليها:

- يصعب عليّ تصديق ذلك.

- لكنه صحيح.

- ماذا؟ ليس في حياتك علاقة حب؟

نظرت إليه بحدة:

- لا شيء يمكن أن أقوله لك.

- إذن هناك، أو كان هناك، شخص ما؟

من الأسلم أن ينحزر، فسألت:

- وماذا عنك؟ أما من علاقة حب؟

- أما اتفقنا على عدم مناقشة شؤوني الخاصة؟

قالت بعفوية: «هذا ليس للتسجيل.. ليس معي دفتر ملاحظات

ولا مسجلة».

- إذن لماذا يتحرك أنفك كأنف أرنب؟

لامست أنفها بسرعة فقهقه ضاحكاً.

قالت ساخطة:

- إنه لا يتحرك! عمّ تتحدث؟

- ما إن تلتقطي رائحة خبر يسيل له لعابك حتى يبدو عليك مظهر «أنا صحفية».

- اسمع.. هذه مهنتي، ولا أستطيع تغيير اهتماماتي كما يحلو لك.

كان في النظرة التي رمقها بها مرارة غير محددة، وتمتم:

- أجل.. أعرف.

ارتدّ عائداً إلى المنزل. كانت الأرض قاسية متراصة، متسعة بما يكفي لمرور شخصين جنباً إلى جنب.. كانت طيور الشتاء تحطّ على الأشجار، أو تطير من غصن إلى غصن.. كان كزفيار ما يزال يمسك ذراعها ولكن لمسته كانت خفيفة، فقررت كواتنين تجاهلها.. ظلّ صامتاً وكأن أفكاره في مكان آخر.. ووجدت نفسها تنظر إليه نظرات فاتنة أعجبت بتوازن جانب وجهه الرائع: أنف مستقيم، خط فك قوي، وعينان عميقتان تحت حاجب ذهبي، أهدابه أثقل مما تذكرها، لكنها مقوسة إلى فوق قليلاً، بشرته حمراء بفعل ريح الخريف.. إنه حسب مقاييس أية امرأة رجل فائق الوسامة.

للمرة الأولى شعرت كواتنين برغبة في وضع وجوه وشخصيات لزوجات خال كاترينا.. وتساءلت عن النساء في حياته.. ما كان شكلهن، وماذا كانت مشاعرهن تجاهه، وتساءلت لماذا لم يتزوج حتى الآن.

كانت تعقيدات شخصيته مثبطة للهمة وكانت تشعر بالإحباط عندما تفكر في محاولة فهمه.. إن التحقيق المفترض بها القيام به يتطلب العمق والدقة منها.. فرئيس التحرير، غراي نورثوود، غير مهتم بأشياء مصطنعة وبعموميات فارغة.. تنهدت بثقل، وتساءلت عما إذا

كانت مهمتها يائسة..

ـ يا لها من تنهيدة رهيبة!

ـ عفواً؟

توقف عن السير لينظر إليها: «أتعرفين كم كان وجهك معبراً؟»

هزت رأسها نفياً، فأردف:

ـ أنا قادر تقريباً على قراءة أفكارك.. ثمة ريبة وخوف من أن أكون صعب المراس، فيفشل مقالك.

كذبت بشجاعة: «لست قلقة».

مد يده يلامس وجهها:

ـ بشرة وردية بيضاء.. شعر أسود وعينان رماديتان.. يا لها من ألوان جميلة.

حاولت كوانتين التراجع ولكنها اكتشفت أنه يمسك بذراعها بحزم لا يلين.. ابتسمت لها عيناه الزرقاوان:

ـ يجب أن تري الآن التعبير على وجهك.

أحست كوانتين بأن أنفاسها غير منتظمة فقالت: أرجوك..

أردف يقاطعها: مزيج من الخوف والرغبة.. عينان واسعتان.. شفتان رقيقتان.. مزيج مغرٍ كثيراً.

ـ لا أريد أن..

ـ لكنك تريدين فأنا أرى هذا.

ـ ليس..

ولكنه لم يمنحها فرصة للاحتجاج، احتوتها ذراعاه. كان عناق شتاء وبحر، أحست ببرودة الهواء في يديه، ورائحة الملح في صدره.. إنه على حق.. لقد أرادت منه أن يعانقها.. كان عناق الليل السابق مجرد بداية.. وعرفت هذا.. بينهما تجاذب لا يمكن إنكاره.

ـ كوانتين بورنيت.. قارئة الطالع الغامضة.. الصحافية المتخصصة التي بنت نفسها على الخجل والمحافظة.. هذا ليس كل شيء..

سألت مقطوعة الأنفاس:

ـ أليس كل شيء؟

لامس بإصبعه زاوية ثغرها بحنان:

ـ لا.. لقد نسيت أشياء عن كوانتين بورنيت.. المرأة.

***

٥ ـ صيد الوهم

أسرعت كوانتين بالابتعاد بعد ملاحظة كزفيار، لكن التعليق ظلّ عالقاً في عقلها تلك الأمسية.. اعتذر كزفيار عن العشاء لعمل يريد إتمامه، فتناولت كوانتين وجبة خفيفة بمفردها ثم بدأت العمل على مقالتها، فوسعت الملاحظات التي سجلتها بملاحظات شخصية ورسوم لوجه كزفيار معتمدة على الذاكرة. كان لديها موهبة التقاط الشبه بمجرد بضعة خطوط، ولوجه كزفيار خصائص كثيرة بحيث يسهل رسمه.. فيما كانت جالسة على سريرها وقلمها يتحرك على الورق بتكاسل، عادت أفكارها مراراً وتكراراً إلى تلك اللحظة تحت الأشجار.

لقد ركز كزفيار على جانب المرأة فيها مبتعداً عن الوجوه الأخرى وكأن لا حساب لها.. رأت أنها في نظره «امرأة» في الدرجة الأولى. مخلوق مثير، أنثى بكل ما للكلمة من معنى.. لقد فعل هذا رجال آخرون من قبل.. ماكس مثلاً.. لكن ما من واحد منهم اجتذب منها رداً مماثلاً.. وفضلت إبقاء تأثيرهم على بعد ذراع منها واعتبرتهم رفاقاً من جنس غير محدد.. كان جزء منها يتمنى لو تفعل الشيء عينه مع كزفيار، والتفكير فيه على أنه مجرد فنان تريد أن تجري معه مقابلة.

لكن جزءاً آخر منها لم يرد شيئاً من هذا القبيل.. لقد نعتها ماكس بالباردة.. وكم راعها ذلك.. فلا نجاحها المادي ولا المهني قد يغطي احتمال فشلها كامرأة. في أعماقها عرفت أن كونها امرأة يعني قدرتها على أن يكون لها علاقة برجل قد تتعدى حدود الصداقة، بل شيء ذو معنى كبير عميق.. ولكن قلبها ظلّ بلا مساس حتى فكرت في أنها مخلوق غير

حساس أبداً.

لكن كزفيار غيّر كل هذا.. فمنذ البداية أحست بتلك الشرارة بينهما، إحساس مرهف، إحساس شحن كل لحظة بينهما بهالة خاصة.. ولقد حاربت هذا لأنه كان يربك حياتها ويعقد الطريقة التي تتعامل فيها معه.. وعرفت أنها لو لانت أمام تلك الأحاسيس لتعكر صفاء حكمها بحيث عجزت عن كتابة مقالة عنه بطريقة صادقة.. أحب الجانب الصحفي بالرعب.. ولكن المرأة البادية تحت الواجهة الباردة كانت المنتصرة..

وضعت كوانتين رسوماتها وأوراقها من يدها، ونظرت إلى الخارج من نافذة غرفتها.. فهمت الآن أنها لم تكن باردة عاطفياً أو غير مبالية بطبيعتها. لقد لزمها رجل مميز ليفك قفل المستودع الذي تختبيء فيه عواطفها ولكنها تمنت يائسة لو لم يكن هذا الرجل هو كزفيار ريشينك. فبينهما فروقات كثيرة.. أولاً هي تحب عملها، أما هو فمنحاز ضد الصحافة.. وقد يُنكر كونه لعوب عابث ولكنها ترى بوضوح أنه يستمتع بحريته وبحبها.. ثم هناك ڤاليسا، ولا شك أن هناك العديدات مثلها.. والأهم أن كوانتين ترفض أن تكون مجرد نجمة أخرى في حزامه الجلدي المليء بالنجوم.

الأمان هو في اللعب بهدوء، لن تطيق أن يحكم قلبها عقلها.. وإن كان هناك ما تفخر به فهو سيطرتها الحديدية على مشاعرها.. لن تفتح معه بعد الآن حديثاً حميماً كالتحدث عن الوقوف أمامه لبرسمها، هي لا تحب كزفيار، بل هي مجرد ضحية تجاذب غير مرغوب فيه، وطالما فهمت هذا بقيت في أمان.. سحبت نفساً عميقاً وعادت إلى رسمها.. هذا استنتاج عاقل بناء.. لن يكون صعباً عليها إبقاء كزفيار على مسافة منها تكفيها الكثير من التدريب على هذا.. أضف إلى ذلك أنه لم يبق أمامها غير يومين تبقى فيهما في الدانمارك، وهي مصممة على الاستفادة من كل ثانية على صعيد مهنتها.

في اليوم التالي، رافقت كزفيار إلى كوبنهاغن.. ووجدت أن ما من

صعوبة في المحافظة على بروده وواجهتها المهنية. كان كزفيار صامتاً أثناء القيادة وعيناه على الطريق، وبداه تقودان المقود بخفة.. نظرت كوانتين عدة مرات إلى جانب وجهه ثم عادت لتراقب المناظر المارة بها، لا تريد التطفل على أفكاره الخاصة.

ما زال لديها أسئلة تطرحها عليه من أجل مقالتها.. لكن هناك ما يكفي من وقت لهذا فيما بعد.. فحين قال لها إن لديه عملاً طارئاً في المدينة، استغلت الفرصة لتزور كوبنهاغن فهي تريد شراء هدايا للعائلة وشيء لنفسها كتذكار لهذه الرحلة.. وهناك أيضاً فكرة تنمو بشكل مضطرد منذ تكلم كزفيار تلك الكلمات الغامضة.

دخلا المدينة عبر «بوليفار» عريض، تحدّه أشجار باسقة، وأبنية مرتفعة.. وفيما كان كزفيار يناور ببراعة حول ما بدا وكأنه مئات من راكبي الدراجات، كانت كوانتين تنظر من النافذة، مذهولة بأن تكون وسيلة النقل العادية في مثل هذا الطقس البارد هي الدراجة.. مرّا بامرأة عجوز على دراجتها أغراض للمطبخ موضوعة في سلة، ومرا أيضاً برجل يرتدي بذلة رسمية ويربط حقيبة أوراقه إلى حمالة، وبعدّة طلاب.

سألت: «هل يركب الجميع في الدنمارك الدراجة؟»

ـ إنها عادة وطنية وهي صحية.

كان عليها أن توافقه الرأي، فتساءلت عما إذا كان الكثير من الناس سيصابون بنوبات قلبية أو يزيد وزنهم لو استخدموا الدراجات في كل رحلة قصيرة يقومون بها إلى محل في زاوية الشارع بدل استخدام سياراتهم.. إن ركوب الدراجة في البلاد الأخرى نوع من الرياضة ولكنها ليست وسيلة نقل من مكان لآخر.. وحدهم الصغار والمراهقون يستخدمون الدراجات في أغراض عملية.

بدت كوبنهاغن مدينة التناقضات، فبين ناطحات السحاب الحديثة رأت الأبراج الشديدة الزخرفة، ذات الألوان الخضراء والذهبية. وفيما كانا يقتربان من منتصف المدينة، استبدلت الشوارع الواسعة بطرق جانبية ضيقة، مرصوفة بحجارة سوداء. رأت نورساً وحماماً تطير في الجو

فتذكرت كوانتين أن كوبنهاغن مدينة بحرية.. وتذكرت أنها قرأت عن أسواق السمك الشهيرة فيها حيث يبقى السمك حياً يسبح في برك حتى يباع.

أنزلها كزفيار في «سترويغن» منطقة التسوّق الرئيسية المحظور فيها مرور السيارات.. واتفقا على اللقاء لتناول الغداء في وقت متأخر. راقبت كوانتين ابتعاد السيارة الفضية عن المنعطف، ونادت سيارة أجرة استقلتها وأعطت السائق قطعة ورقية عليها عنوان سجلته خلال البحث الذي أجرته في نيويورك.. اضطرت إلى كبت ضحكة، فعندما أسرع التاكسي في الشوارع أحست وكأنها عميل سرّي في رواية جاسوسية.. ما هي إلا عشر دقائق حتى أنزلها التاكسي أمام معرض فني واجهاته الزجاجية عريضة.

تعالى رنين جرس في الكاليري الفارغ عندما دخلت ولكن مضت عدة دقائق ولم يأت أحد فراحت كوانتين تحوب المكان بحرية، تتأمل اللوحات والمنحوتات.. خلعت قبعتها الصوفية ولمست شعرها الأسود الناعم.. المكان هنا دافىء، لذا فتحت معطفها القصير، وخلعت وشاحها عن عنقها.. لم تر رسوماً لكزفيار هنا، وتساءلت عما إذا بيع نتاجه كله خلال عرضه الأخير، في الشهر المنصرم.

قطع صوت رجل عليها أفكارها: «فوداغ فروغن».

ارتدت كوانتين لتواجه شاباً كان يقف وراءها وعلى وجهه ابتسامة مذهلة.

قالت: «آسفة.. لا أتكلم الدنماركية».

أجاب الشاب: «لا شك أنك أميركية إذن».

ـ وهل جنسيتي واضحة إلى هذا الحد؟

تقدم الشاب الذي بدا مسحوراً بها.

ـ يتحدث الأميركيون الإنكليزية بلكنة ساحرة.

عرفت كوانتين أنه ليس مالك المعرض بل بائع فيه، فهبت في نفسها شعلة أمل صغيرة.. الشاب في أوائل العشرين من عمره، جميل المظهر،

عيناه زرقاوان وشعره أشقر ينسدل على جبينه، فوق وجه تحيل فيه نظرة جادة.. عرفت أن عليها أن تخجل من نفسها لما تنوي فعله، ولكنها صبَّت كل ما أعطاها الله من بهاء طلة، وفتنة، واهتمام على الشاب أمامها.

ـ لقد قرأت الكثير عن الفن الدانماركي.. وفكرت أن أتفرج على شيء منه.. هذا إذا كنت لا تمانع.

ولم يكن الشاب ليمانع قط، بل الواقع أنه أحس بالغرور لاهتمامها.. وانتعش وهي تلقي الأسئلة فراح يفيض ويسهب في الإجابة وكانا ينتقلان من لوحة إلى أخرى ولكن كوانتين استخدمت كل وسيلة وخدعة تستطيع القيام بها.. كانت توسّع عينيها أمامه، وترفرف رموشها حين تريد قول شيء.. وتتصرف وكأنه هبة الله للفن، وللنساء.. عرفت كوانتين إضافة إلى المعلومات التي قالها لها عن الفنانين إنه طالب في جامعة الدنمارك يدرس تاريخ الفنون.. يملك عمه الكاليري، وهو يعمل جزءاً من الوقت بين الصفوف والدراسة.

قالت وهما يصلان إلى مؤخرة الكاليري بعد تفرجها على اللوحة الأخيرة فيه.

ـ إن هذا مثير للاهتمام.. لم أكن أعلم أن الفن الدانمركي متعدد هكذا.. لقد شاهدت فقط عمل رسام دنماركي واحد.. كزفيار ريفينك.. هل سمعت به؟

كاد الشاب يقفز مرحاً.. وأكد لها أنه لم يسمع فقط بالهير ريفينك، بل الواقع أن الكاليري أقام له معرضاً منذ شهر مضى.. وكان معرضاً ناجحاً بيعت فيه كل اللوحات إلا اللوحات التي لم يشأ بيعها.

سألت كوانتين بعفوية: «إنه يعيش قريباً من هنا.. أليس كذلك؟»

ـ خارج كوبنهاغن.. مع أمه الأرملة.

ـ أحب أن أرى مرسمه.

اتسعت عينا الفتى الزرقاوان ذعراً:

ـ لا.. هذا مستحيل.. إنّ هير ريفينك يحرص كثيراً على الابتعاد

عن الناس، تصوري أنه لا يحضر معارضه.. في الواقع لم أره قط.

أبدت كوانتين مظهر الخيبة:

ـ أتعني أنه ناسك؟

ـ ليس بالضبط.. يقول عمي إنه يكره الصحافيين، لذا ينطوي على نفسه.

عبست لتخفي إحساساً متزايداً بالرضى:

ـ إن هذا لغريب.. ترى لماذا يفعل هذا؟

هز الشاب كتفيه: لهذا علاقة بأخت له انتحرت منذ سنوات على ما أظن.

لم تضطر كوانتين إلى افتعال دهشتها هذه المرة.

ـ يا له من أمر رهيب!

طالما ظنت أن لكزفيار أخت واحدة، تلك التي تعيش في فيرجينيا، والدة كاترينا.

سألها البائع الذي أرضاه أن تجتذب كلماته رد فعلها هذا، إذا كنت تحب أن ترى لوحة لشقيقة الهير ريفينك.

ـ عرضت لها لوحة في المعرض ولكنها لم تكن للبيع.

قالت بحماسة: «أحب أن أراها».

لحقت به إلى غرفة خلفية مظلمة تُحفظ فيها اللوحات أمام الجدران، وراقبت من فوق كتفه وهو ينتش بينها.. ثم قال:

ـ هاك.. هذه هي!

أمسكتها كوانتين بيديها تقربها من الضوء. كانت لوحة صغيرة لامرأة شابة تجلس في مقعد، تنظر من النافذة إلى الخارج.. في هذه اللوحة الكثير من خصائص ريفينك التقليدية: الأبعاد النظيفة، استخدام الضوء والظل، الألوان النابضة بالحياة.. كان جانب وجه المرأة وحده هو البادي، ولكن كوانتين استطاعت رؤية الشبه بينها وبين كزفيار في خطوط فك المرأة ولون خصل شعرها الذهبي المسترسل.. في وقفتها شيء من التعاسة والبؤس، فتساءلت كوانتين عما إذا رُسمت

اللوحة في حياتها أم بعد مماتها!

عرفت أن والد كزفيار مات منذ سنوات عديدة. ولكنها لم تعرف أن إحدى شقيقتيه أقدمت على الانتحار وتساءلت عن دور الصحافيين في موت أخته.. ولكن لو جعلت الصحافة من الانتحار حدثاً مثيراً، لوجدت إشارة له خلال بحثها المكثف.

سأل البائع: «ألم تعجبك؟»

ـ آه! بل، لكنها لوحة حزينة.

عاد ليبحث بين اللوحات مجدداً، فأخرج لوحة أخرى.

ـ هاك واحدة أخرى قد تعجبك رؤيتها.. لقد تلقينا عدة عروض لها ولكن الهير ريفيتك رفض بيعها.

عندما أعطاها اللوحة كادت كوانتين تعجز عن كبت شهقتها، فقد نظرت إليها من القماش عيناها الرماديتان النجلاوان المخططتان بالكحل.. لقد رسمها وهي عرّافة.. كان شعرها متشابكاً إلى الخلف بمشطين مزينين بالألماس الزائف، والماسة كبيرة مماثلة تتدلى على جبينها، وطوق يراق يحيط بعنقها الطويلة. إنها مجرّد لوحة، ولكنه التقط فيها كل عناصر الخيال التي تغيّر السبرك وتجعل من ممثليه أضخم من الحياة. كادت تُفتن بها لو لم تلاحظ أن كزفيار زاد على اللوحة شيئاً أخطر مما تراه.. لقد أعطى شقيقتها استدارة شهية، ووضع في عينيها مزيداً من البريق، كان مثيراً للخيال.. وكلما نظرت كوانتين إلى اللوحة كلما زادت رهبتها.. لقد ساورتها الشكوك في السبب الذي دفعه إلى الموافقة على إجراء مقابلة صحفية شرط أن تكون هي الصحافية.. ولكنها لم تحب أن تعترف أنه أرادها لما تمتلكه من أنوثة لا لما تمتلكه من قدرات.

كان تركيزها على اللوحة عميقاً بحيث لم تلاحظ تحديق البائع الذي راح ينظر منها إلى اللوحة.. أخيراً قال:

ـ أمر غريب.. هذه اللوحة تشبهك قليلاً.

نظرت إليه كوانتين نظرة تجعل رجلاً أقوى منه بكثير يذوب في ثيابه، وقالت بحدة:

ـ يا له من أمر سخيف تشير إليه.. أنا لا أشبهها أبداً!

ابتلع الشاب ريقه، وتحركت حنجرته تكراراً في عنقه، وقال بسرعة: «بالتأكيد لا».

وضعت اللوحة من يدها وابتسمت له ببرود:

ـ لقد ساعدتني كثيراً.

واتجهت إلى باب المعرض..

لحق بها البائع، وعلى وجهه نظرة كرب وبداء تلتفان بطريقة عاجزة.

ـ أليس هناك ما أستطيع..

فاطعته: «شكراً لمساعدتك.. وحظاً سعيداً في دراستك».

احتاجت إلى سحب بضعة أنفاس عميقة من الهواء البارد لتسترد هدوءها.. استقلت سيارة أجرة وعادت إلى «ستروغن»، وهناك بدأت السير صعوداً ونزولاً في الشوارع تلقي نظرة على الواجهات، ولكنها لم تكد ترى البضاعة المعروضة فيها، لأن كل ما كانت تراه أمامها كانت لوحتها حسب نظرة كزفيار التي أبرزها للعالم ليراها.. عرفت أن عليها أن تشعر بالإطراء حسب مقاييس معظم النساء، لإعجابه الواضح بها.. لكنها بدلاً من ذلك أحست بالخيبة لأنه كلما نظر إليها لن يرى مثيلة لها سهنة أخرى، بل شيئاً مثيراً.. لا عجب إذن أن يرغب في أن تقف أمامه ليرسمها!

شدّت حقيبتها إلى كتفها ونظرت إلى الشارع أمامها.. ستكون الآن حاضرة أمام أية محاولة لإغوائها.. الإنذار المسبق كالتسليح المسبق.. ابتسمت للفكرة.. ثم، أحست فجأة بالناس حولها وبنظراتهم الغريبة إليها.. كانت تتصرف كمن فيه مسّ فتورد خدّاها وتابعت الطريق عازمة التركيز على واجهات المحلات.

وجدت «دن قيرمانت» الذي يضم معرضاً للفنون والمصنوعات اليدوية الحرفية.. هناك، اشترت لنفسها شمعدانات دقيقان رفيعان..

في مكان بعيد عن الشارع وجدت محلاً يبيع كنزات محاكة يدوياً،

حيث اشترت كنزتين، واحدة كحلية اللون رائعة عليها تطريز أبيض لمورغان، وأخرى ذهبية اللون لسولين.

في «بينغ وغروندهال» اشترت تمثالاً خزفياً صغيراً ستهديه لأمها ليزا التي تحب جمع التحف. أما لزوج أمها، ستان فاشترت كتاباً عن كوبنهاغن فهو يحب القراءة عن الأماكن الأجنبية الغريبة، وتعرف كم يحلم في السفر.. ولم يكن بخول بينه وبين ذلك نقصان المال بل الإصابة التي تعرضت لها ساقه في الحرب والتي جعلت السير مسافات بعيدة مؤلماً وصعباً.

حين اتجهت كوانتين أخيراً إلى مكان اللقاء مع كزفّيار، وجدت سيارته متوقفة عند منعطف وجسده الطويل في المعطف الأسود يستند إليها. أحست بالخجل، فبعدما رأت الصورة التي رسمها لها، رغبت لبرهة في الفرار تجنباً لكل المشاكل التي يمثلها لها.. لكنها تصلبت، فقد علمتها الحياة أن الهرب جبن مدمر.. هذا ما علمها إياه والدها.

قررت أن تظهر مسرورة فدنت مبتسمة.. وابتسم رداً حين رأى عدد الأكياس التي تحملها.. قال ممازحاً وهو يساعدها على وضع المشتريات في مقعد سيارته الرياضية الخلفي:

- أرى أنك منحت الاقتصاد الدنمركي مساهمة خاصة.

- لقد اشتريت الهدايا للجميع.

لاحظ الاسم على الأكياس:

- أنت كريمة وسخية اليد.

- أنا البذرة الكبيرة الدائمة.. انتظر ليرى مدير مصرفي رصيدي!

نظر إليها بمكر: «وهل تعرفينه شخصياً؟»

- معرفة مالية بحتة.

وفكرت في مدير المصرف، الرجل الأقرع المتزوج والبالغ من العمر خمسون عاماً، الأب لأربعة أولاد، وصاحب العبوس إذا ما تجاوز أحدهم الحسابات.

اصطحبها كزفّيار إلى مطعم صغير شهير، يطل على ميناء

كوبنهاغن.. كان مكاناً جميلاً، علقت على جدرانه أطباق من الخزف الأزرق وباقات من القرنفل الأحمر الطازج في كل مكان.. كانت مائدتهما قرب النافذة، من خلالها رأت كوانتين حافة الماء والأرصفة وعدة سفن، ومراكب نقل البضائع، ثم تمثال حورية البحر الصغير القابع فوق صخرة والشاخص إلى البحر.. كان هناك صبيان صغيران يتسلقان التمثال، وتمكن أحدهما من إحاطة كتفها بذراعه.

- إنها جميلة فعلاً.

لكنه قال:

- إنها كليشه معروفة هنا.

احتجت: «هذه سخافة.. فالأميركيون لا يشعرون هكذا تجاه تمثال الحرية».

هز كتفيه: لكل أمة معتقداتها.. والإحساس بالحرج من الحورية الصغيرة هي عادة أهل كوبنهاغن. مع ذلك أذهل دائماً من شعوري بالسعادة كلما عدت من زيارة للولايات المتحدة.

رفضت كوانتين البحث في فروقات الثقافة بين الدنمركيين والأميركيين.. وسألت بلهجة عادية:

- متى سافرت لآخر مرة؟

لوّح إصبعه في وجهها وقال ساخراً: «عيب عليك..».

ابتسمت كوانتين، لكنها في داخلها تنهدت محبطة. فرغم المعلومات التي جمعتها من الكالبري، ما زال لديها أمور كثيرة لا تعرف عنها شيئاً.. فكل سؤال شخصي لا يلقى رداً.. بل هو اليوم يبدو غامضاً، يرتدي الأسود وكنزة باقتها مرتفعة تحدد عضلات صدره. كان شعره الذهبي أشعث بفعل الريح..

طلبت شرائح لحم ستيك، مع الخيار والخس والبندورة والبقدونس والجزر، لذا أصبح الستدويش كبرج بيتزا المائل.. فسألت بارتباك:

- كيف سآكل هذا؟

عرفت أنها لو قضمت منه قضمة لتساقطت أجزاء منه على

ضحك كزفيار بتحد:

ـ سنأكليه بصعوبة!

استخدمت سكينها والشوكة، وكانت تقطع السندويش حين سمعت صوتاً أجش يتحدث بدنماركية سريعة، وبدهشة واضحة سعيدة.. رفعت بصرها فرأت شقراء جميلة ذهبية البشرة زرقاء العينين، تقف قرب طاولتهما ويدها تستريح بتملك على كتف كزفيار.

قال كزفيار وهو يقاطع تدفق الكلمات الأجنبية:

ـ ڤاليسا.. أريد أن أعرفك إلى كوانتين بورنيت.. لقد جاءت لتجري معي مقابلة لمجلة أميركية.

ـ ما ألطف هذا!

كانت الكلمات مهذبة، لكن عيني ڤاليسا لم تكونا كذلك، بل كانتا تتأملان كوانتين غير معجبة بما تراه.. أحست كوانتين أن نظرتها تطوف عليها وكأن ريح باردة تهب عليها.

قال كزفيار: «هل تناولت الغداء؟»

ـ لا.. هل تمانع إن انضممت إليكما؟

ارتدت إلى كوانتين:

ـ إذا كنت لا تمانعين..

ـ بالتأكيد لا أمانع.

لكنها كانت تمانع.. في الواقع كرهت فكرة الجلوس على مائدة واحدة مع عشيقة كزفيار وموديل رسمه.. وفهمت لماذا اختارها، فقد كانت جميلة بل خلابة.. لصوتها رنة مثيرة.

لم تستطع كوانتين وضع إصبعها على ما لم يعجبها في ڤاليسا، لكن الإحساس الذي شعرت به كان يُظهر عدائية فورية.. أما ڤاليسا فكانت تجلس وعلى شفتيها ابتسامة باردة.

ـ لقد رأيت الصور التي رسمها كزفيار لك.

ـ إنها تنصفني كل الإنصاف. أليس كذلك؟

تمنت لو كان كزفيار هنا ليسمع عجرفة المرأة ولكنه كان قد ذهب ليعلق معطف ڤاليسا.

أجابت: «ربما».

قالت ڤاليسا بمكر:

ـ كزفيار موهوب جداً.

ـ أجل.. إنه كذلك.

جلس كزفيار في مواجهتهما:

ـ تتكلمان عني؟

شعرت كوانتين بأنه يستمتع بهذا اللقاء، وبجو العداء الذي أثاره، ولو تعمقت أكثر في شخصيته لعرفت أنه يستمتع كذلك بنظرات الحسد التي يوجهها الرجال الآخرون.

قالت ڤاليسا: «تتكلم عنك بالتأكيد.. فأنت رجل فاتن».

ـ وأنت يا ڤاليسا.. تحسنين الإطراء.

ابتسمت له ابتسامة مثيرة بطيئة:

ـ لكن الإطراء ينجح.. أليس كذلك حبيبي؟

لم يرد عليها كزفيار مباشرة بل نظر إلى كوانتين:

ـ ترغب ڤاليسا أن يكون كل رجل في كوبنهاغن رهن إشارتها.. إنها تتعش أمام من يحبها.

سألت كوانتين ببرود:

ـ أليس هذا أمراً مضجراً؟ أقصد أن تحصل المرأة على كل من تريده من الرجال.. أليس كل ممنوع مرغوب؟

نظر إليها مفكراً: «تفضلين الملاحقة إذن؟»

لم تصدق ما قاله.. لم يسبق لها أن تكلمت بهذه الطريقة وكأنها حيرة باردة وذات حنكة، لكنها فضلت أن ترد:

ـ وأنت؟

كان كزفيار يهم بالكلام ولكن ڤاليسا الضجرة بدأت الحديث عن رحلة أخيرة لها إلى ألمانيا، لأنها لم تعد مركز الاهتمام.. ثم لما وضع

الساقي الغداء بدأت بالتذمر من الركاب والطيار والمضيفين والمضيفات.

أضافت لكزفيار:

- يؤسفني ألا تعود بحاجة إلى من ترسمه.

عندما تكلمت المرأة، وجدت كوانتين الفرصة سانحة للسؤال:

- وهل عملت موديل رسم من قبل؟

هزت المرأة رأسها نفياً: «كان كزفيار الأول».

أحست أن اهتمام كزفيار انصب عليها ولكنها رفضت النظر إليه، وركزت نظرها على وجه فاليا العريض الجميل لتسألها:

- ومتى بدأ هذا؟

- منذ سنتين.

- أليس صعباً الجلوس في وضعية واحدة يوماً بعد يوم؟

أملت أن تكون قد نجحت في رسم الشفقة في صوتها. أخذت فاليا قضمة من سندويشها:

- لم يكن هذا كل يوم.. لأن كزفيار لم يكن موجوداً طوال..

قاطعها كزفيار بسهولة: سبحان الله.. كيف تغيّر الطقس بسرعة.. لقد تلبدت الغيوم في السماء.

سرعان ما انشغلت فاليا بموضوع الطقس إذ ارتدت إلى النافذة ثم بدأت تتذمر من تغير لون السماء.. وكانت غارقة في هذا بحيث لم تلاحظ تبادل النظرات بين كزفيار وكوانتين. وأحست كوانتين أنها كصياد السمك الذي يستمر في رمي الطعم بدون اصطياد سمكة.. كانت كلمات فاليا نغرة أخرى في الأحجية الكبرى.. إن لم يكن كزفيار يرسم طوال الوقت، فماذا يفعل غير الرسم؟ وإلى أين يذهب.. اللعنة!

كان آخر طبق في الوجبة هو «الأوست» وهو طبق فيه أنواع مختلفة من الجبن الدنمركي. في تلك الأثناء تناقش كزفيار مع فاليا أمر أصدقاء مشتركين.. أخيراً، وعلى مضض، أعلنت فاليا أن لديها

موعداً عند المزين النسائي فتركتهما بعدما عانقت كزفيار بسخاء ثم ذكرته بالاتصال بها سريعاً.

راقبتها كوانتين تذهب فكرهت الطريقة التي كانت تتمايل فيها والتي جذبت أعين الرجال في المطعم.. قالت لنفسها إن كراهيتها لها نابعة من كراهيتها للمفارقة المجحفة فكيف تملك امرأة مثلها فارغة العقل هذا الجمال كله.. ولكن مشاعرها كانت مختلفة في أعماقها.. فحين مالت فاليا لتعانق كزفيار، أحست كوانتين بمخالب جارحة من الغيرة تمزقها. تعرف أن كزفيار ليس لها.. لكن الغيرة كانت تجرح وتخدش وكأنها قطة شريرة، كل مخالبها جاهزة وبرائنها مكشوفة.

***

٦ ـ لا يسامح ولا ينسى

حين عادا إلى المنزل استقبلتهما والدة كزفيار، ايفا ريشينك، العائدة من زيارة صديقتها في كوبنهاغن.. كانت امرأة طويلة، تلف جدائل شعرها حول رأسها.. كانت وهي في الستين جميلة، وتحتفظ ببنية رائعة جعلتها يوماً امرأة مذهلة الجمال.. كانت هي وكزفيار يتشاركان رشاقة الأطراف الطويلة، والعينين الزرقاوين والوقفة الملوكية.

استقبلت كوانتين بلباقة وتهذيب، ثم اقتادتها إلى غرفة الطعام وهناك سألتها عن عملها وعن مكان إقامتها.. خلال العشاء تحدثتا عن الفروقات بين الدنمارك والولايات المتحدة، وعن آخر لوحات كزفيار، ورحلة إيفا المتوقعة إلى اليونان.. شعرت كوانتين بأن إيفا رغم لطفها، كانت حذرة خشية التطرّق إلى الأحاديث الشخصية.. فكلما اقتربت كوانتين من موضوع محرّم، كانت إيفا تقودها ببراعة في اتجاه مخالف.. لكن، وهما في نهاية الوجبة، تركت إيفا معلومة تفلت منها. قالت متنهدة بعد انتهاء كوانتين من الكلام عن مسرحية جديدة شاهدتها في برودواي:

ـ لم أزر نيويورك منذ وفاة زوجي جايمس.. اشتقت إليها كثيراً.

سألت كوانتين: لكن جايمس اسم غير دنماركي.

تدخل كزفيار: «لم يكن والدي دنماركياً.. بل أميركياً».

ـ لم أكن أعرف هذا.. ألهذا السبب ترعرعت في الولايات المتحدة؟

قالت إيفا: بعد الحرب كان مركز زوجي خارج واشنطن.. كان مع الجيش وهكذا التقيته.. كنت عروس حرب.. ولد كل أولادنا في

فرجينيا ولكننا كنا نقضي كل صيف هنا في الدنمارك.. وهذا المنزل هو منزل أهلي.

ـ إنه جميل جداً.

ـ كانت الأملاك مشهورة بحدائقها الغنية بالورود. لا أستطيع الحفاظ على الحدائق التي كانت في عهد والدي.. ولكنها ما تزال جميلة في الربيع والصيف.

ابتسمت كوانتين: واثقة من هذا.

لكن عقلها كان يفكر بسرعة فائقة.. إن كان هذا المنزل لأسرة ريشينك، فكزفيار إذن يستخدم اسم عائلة أمه كاسم مستعار، ولم يكن يخدعها حين قال إنه لا يعود كزفيار ريشينك حين لا يكون هنا.. فخارج الدنمارك يستخدم اسمه الأصلي.. لكن، ما هو؟

في ذلك المساء وبعدما عادت إلى غرفتها جلست تكتب لائحة بما تريد معرفته عن كزفيار وما لا تعرفه. العمود الذي يحتوي على ما تعرفه كان قصيراً جداً، أما الآخر فكان يصل إلى أسفل الصفحة التي تكتب عليها.. وكان أكبر مأزق يواجهها هو محاولة معرفة أين مكان إقامته حين لا يقيم مع والدته.. تساءلت للمرة الثانية عما إذا كان لديه شقة في كوبنهاغن.. وهذا أمر معقول أكثر، فهي لا تتصوره يستقبل «صديقاته» في منزل أمه.

فكرت كوانتين بأخته التي تعيش في فرجينيا.. ربما يعيش في مكان ما من الولايات المتحدة.. أيكون ذلك في واشنطون، نيويورك، أم بوسطن؟

كوّرت كوانتين لائحتها، ورمتها في سلة المهملات قرب السرير مفتاح معرفة النصف المفقود من حياة كزفيار هو في اكتشاف اسم عائلة أبيه. ولا تظن أن من الصعب الكشف عن المعلومات المهمة.. في مكان ما من هذا المنزل لا بد من وجود قصاصة ورق مدون عليها اسم كزفيار ريشينك الحقيقي.

في آخر يوم لها في الدنمارك ذهبت كوانتين مع كزفيار إلى «هليسنغر»

وقد اقترح زيارة موقع قصر «هاملت» لتناول الغداء والتفرج على المناظر بعد الظهر.. عرفت كوانتين أنه يحتاج إلى تغيير جو بعد ساعتين من الكلام.. نعم لم يتذمر بل العكس، كان متعاوناً كثير الكلام.. إذ جعلها مشغولة في تسجيل رأيه عن الفن المعاصر في أوروبا وأميركا، المتاحف والقيمين عليها. كان كزفيار بعيداً عن الجو الفني والفنانين وحفلاتهم ولقاءاتهم، ودوائر الشائعات، ولكنه كان يدرك ما كان يجري خارج منفاه في الدنمارك. بعض آراءه أثارت اهتمامها، وبعضها أثار جدالاً. في نهاية الحديث علمت كوانتين أنه أصبح لديها المواد الكافية لمقالة جيدة مع أنها ما تزال تجهل كل شيء عن حياته الخاص.

تبعد بلدة «هليسنغر» حوالي عشرة أميال شمالي موقع المنزل.. ومن المفترض أن تكون الرحلة سهلة على الطريق الرئيسية العريضة لولا العطل الذي أصاب سيارة كزفيار فجعلهما يصلان متأخرين ساعة على الأقل.

أمضى كزفيار ساعة التأخير حانقاً يتمتم بمزيج من الإنكليزية والدنماركية.. شملت اللعنات بالإنكليزية مختلف أجزاء السيارة بطريقة سلبية متطرفة، وما كان على كوانتين إلا أن تحمد الله لأنها لا تتقن الدانماركية فذلك أنقذها من فهم شتائمه الحادة الأخرى. هكذا كان الوضع، توقف ثم انطلاق متقطع.. أخيراً تعطلت كلياً على بعد شارع من الكاراج.

وقال بإنكليزية واضحة: «اللعنة!»

ـ يا لهاملت المجنون.

لم تتمكن كوانتين من الإشارة إلى هاملت الذي يمكن رؤية قصره من وراء سطوح مباني هليسنغر.

رد كزفيار: لم يكن هاملت مضطراً للتعامل مع «الكاريوراتور» والبطارية.. وإلا انتحر.

دفعا السيارة إلى الكراج، فحمدت كوانتين ربها لأنها ترتدي ثياباً عادية إذ تركا السيارة هناك، وقصدا نُزُلاً قريباً لتناول الغداء.. كان لغرفة الطعام سقف من جذوع الأشجار وعلى جدرانها لوحات زيتية

وساعة أثرية كبيرة، تكتكاتها مخنوقة

قال ساخراً بعدما طلبا الطعام:

ـ العمل أولاً وآخراً بالنسبة لك.. خلتك ستكونين أكثر رومانسية.

ـ ولماذا أكون رومانسية؟

ـ وجدت بناءً على تجربتي أن معظم النساء رومانسيات.

ردت بحدة: أنا آسفة لأنني الاستثناء على القاعدة.. أنا امرأة واقعية.

ـ أتعتقدين أنني لم ألاحظ ما تبذلينه من جهد لإبقاء حديثنا على مستوى العمل؟

ومضت صورة قارئة الطالع في رأسها، فردت بحدة:

ـ لست هنا للإغواء.

ـ يا لها من كلمة قديمة الطراز! كنت أفكر في ما يقال له اليوم التسلية المشتركة.

ـ أنا لا أهتم بالعلاقات العابرة.

ـ وفيم تفكرين إذن؟

كان السؤال ناعماً ولكن عينيه كانتا تبرقان، وكأنهما حد الماس أزرق قاطع.. ولذعتها سخريته، فأجابت بحدة:

ـ الحب.. الالتزام.. الاهتمام.

ـ يا للروعة!

اسودت عيناها الرماديتان غضباً:

ـ أنا على الأقل أؤمن بوجود أشياء كهذه ولست قاسية الفؤاد أو كثيرة السخرية.

حدق إليها لحظات، ثم قال:

ـ إذن أنت تصدقين تلك الأشياء التي قلتها لي عندما مثلت دور العرّافة؟

عضت شفتها، ونظرت إلى يديها.. وتمنت لو أنها لم تكن ملهمة إلى ذلك الحد حين واجهته في خيمة العرّافة.. لقد قالت له إن قلبه خالٍ

ومحروم من الحب، والواضح أنه لم يساعدها على هذه الإهانة. ولعل في ما قاله شيئاً من الحقيقة ولهذا يشعر أنها آذته في العمق.

لم يكن كزفيار يثق بميكانيكي بلدة صغيرة لذا اضطر إلى البقاء في الكاراج، واعتذر لكوانتين عن اصطحابها لمشاهدة معالم البلدة التاريخية. بعدما أكدت له أن لا بأس في هذا، انطلقت تستكشف البلدة وقصر «كرونبورغ».. كانت البلدة نفسها صغيرة فيها آثار كثيرة يعود تاريخها إلى العصور الوسطى تقع في نهاية الخط الساحلي.

سارت كوانتين على الرصيف البحري، تراقب السفن ومراكب الشحن تشقّ طريقها جنوباً. كانت السماء صافية مرة أخرى والمضيق أخضر قاتماً.. هبّت الريح إلى الداخل فعبقت رائحة الملوحة، أما الرطوبة فكانت قوية حتى أحست بها على شعرها وبشرتها.

سارت شاردة الذهن، لا تريد التفكير في الحديث الغاضب الذي جرى وقت الغداء. فيما بعد غطيا معاً ذلك الغضب بحديث خفيف ولكن لن يستطيع شيء تغيير ما قيل.. لقد عرض عليها كزفيار بكل وقاحة، علاقة، ثم سخر من الأسباب التي دعتها لترفض.. كان يريد أن تتحقق نبؤة مدام أزميرالد المجنونة. وهل هناك رجل لا يريد امرأة مثالية أن تظهر في حياته؟

تنهدت وهي تنظر إلى الساحل السويدي البعيد.. الفهد لا يمكنه تغيير جلده المرقّط.. وهي لا تستطيع تغيير شخصيتها.. لديها إيمان راسخ بأن لا معنى لأية علاقة بلا حب.. إنها لا تحب كزفيار وهو لا يحبها.. ولكن لماذا يجعلها على هذه الدرجة من الكآبة، إنها لا تريد أن تتورط مع رجل مثله، مهما كان وسيماً جذاباً.

دفعت عنها أفكارها وتوجهت إلى الجسر الصغير المفضي إلى القلعة الحجرية التي تطل على المضيق كله.. «كرونبورغ كاسل» بناء ضخم، غرفة المآدب الكبيرة، وغرف النوم، كثيبة متزمتة.. فيما كانت تسير في الممرات السرية المحصنة ارتعشت قليلاً وعزت مرض هاملت إلى أكثر من الأشباح.. فلو زار شكسبير مؤلف الرواية «كرونبورغ كاسل» لاتخذت

روايته منحى آخر..

لكن كوانتين فضلت أن تتصور أن البطلة أوفيليا سكنت هذه الغرف.. حيث شعرها الطويل يتدفق خلفها وطرف فستانها يتطاير حول كاحليها.

تركت كوانتين القلعة مبتسمة.. إنها تحب الطريقة التي تعيش فيها القصص والأساطير. كانت تبتسم حين ارتدّت نحو الزقاق الضيق في طريقها إلى الكاراج، وهناك شعرت بيد تحط ثقلها على كتفها.. في البدء حسبته كزفيار، فاستدارت والتحية على شفتيها لكنها ذعرت عندما رأت ثلاثة بحارة يرتدون سراويل وسترات قصيرة يقفون وراءها وعلى وجه كل منهم ضحكة بارزة وفي عينيه بريق الإعجاب.

قالت: «عفواً» وخطت إلى الأمام.

كانت إنكليزيتهم مكسرة متلعثمة.. لكن لغة الجسد لديهم كانت أقل من الكلمات. أحدهم، وهو القصير البدين، وقف أمامها ووضع يديه على وركيه ومرفقيه مبتعدان.. ارتدّت كوانتين فجأة إلى اليمين، ولكنها وجدت بحاراً آخر، ثقيل الوزن قوي العضلات عاقداً ذراعيه على صدره، يسد طريقها. في لحظات كان الثلاثة يحيطون بها فخفق قلبها ذعراً.. نظرت برعب إلى المباني حولها، وأدركت أنها دخلت زقاقاً خلفياً في ضاحية تجارية.. كانت أكوام الزبالة تتكوّم قرب الجدران، وعدّة سيارات وشاحنات مركونة في الداخل.. أما المحلات فكانت نوافذها صغيرة قاتمة، وأبوابها مقفلة.. لم يكن هناك وجه ودود واحد يقدم لها المساعدة، بل ليس هناك أحد على مرمى النظر أبداً.. أدركت كوانتين بقلب غائر أن ما من كائن حي في كل هيلسنغور يهتم بما يجري في ذلك الزقاق بالذات.

قالت وهي تحاول الحفاظ على هدوئها:

- أرجوكم.. دعوني وشأني.

ازداد اتساع ابتسامة معذبيها، فالبدين مد يده يمسك خصلة من شعرها الأسود وقال وهو يشدها بشعرها ليقربها منه: رائع!

أرادت أن تصرخ، لكن أنفاسها خرجت بشهقات مؤلمة متقطعة..

ولكن البحار الثالث بدا مشفقاً عليها.. فتكلم إلى الآخرين بالدنماركية هازاً رأسه مشيراً بيديه. نظرت إلى عينيه الزرقاوين الصغيرتين على أمل أن يرى رعبها فيتخذ موقفاً متشدداً ضد رفيقيه. من كان يمسك بشعرها، جذبها بين ذراعيه، فازداد غضب الثالث.. فجأة أدركت كوانتين أن الشفقة ليست الدافع لغضبه بل رغبته في أن تكون له أولاً.

بدأت ترتجف بعنف.. همست: آوه.. أرجوك.. وبدأ رأسها يدور.. وذابت ساقاها من الخوف.. أخيراً تهاوت بين ذراعي آسرها خوفاً ورعباً فسمعت ضحكته، ويا لها من ضحكة بشعة مرعبة قلبت معدتها وأصابتها بالغثيان.

فجأة سمعت صوتاً أجش، وبحركة سريعة متوحشة، أمسكها أحدهم، فانقطع زر معطفها.. سمعت صوت اللحم يصفع لحماً.. وأحدية تطرق على الرصيف.. ووجدت كوانتين نفسها بين ذراعي كزفيار والدموع تغطي وجهها. مالت إلى صدره العريض فاستراح خدها على معطفه الواقي من الريح.. كل أفكارها غير المحببة عنه تلاشت.. وأصبحت قوة ذراعيه ملجأها من الخطر وراحت يده تتحرك على شعرها تهدىء روعها.

وقفا هكذا لحظات طويلة، ثم أبعدها كزفيار قليلاً لينظر إليها وسأل:

ـ هل أنت بخير؟

لم تره كوانتين يوماً على هذه الدرجة من الغضب.

هزت رأسها إيجاباً فما زالت غير قادرة على الكلام أو التوقف عن الارتعاش.. نظرت إلى الزقاق.

ـ لو أستطيع وضع يدي على هؤلاء الأنذال لقتلتهم!

أخيراً شهقت: «أنا بخير.. حقاً!»

عاد لينظر إليها: هل آذوك؟

ـ لا.

اشتدت أسنانه: «هل لمسوك؟»

هزت رأسها وقالت بصوت مرتعش: «لا.. لم يمسني أحد منهم»

ـ الحمد لله على هذا!

أرادت أن تتوقف عن الارتعاش فسوّت باقة سترتها. ولكن الرجفة تضاعفت، فلولا مجيء كزفيار..

سألت: «كيف عرفت أنني هنا؟»

ـ لم أعرف.. كنت في طريقي لأبحث عنك حين سمعت جدالاً فبحثت أرى ماذا يجري.

تركها ليرجع شعره عن جبينه إلى الوراء.. صاحت كوانتين: «أنت تنزف!»

نظر إلى قبضته الدامية، وقال ضاحكاً ضحكة انتصار:

ـ سيحمل أحدهم دمغتي فترة طويلة.. وكنت أتمنى لو حطمت وجوه الثلاثة معاً!

حين عادا كان المنزل هادئاً ساكناً.. كانت السيارة قد أصلحت في الكاراج.. وأنزلها كزفيار قائلاً إنه يريد إعادة فحصها في كراجه المعتاد.. وإنه سيعود بعد ساعة أو ساعتين.. كان الشخص الوحيد الذي حيا كوانتين لدى دخولها إيملي، التي قالت لها إن إيفا ريفيتك نال قسطاً من الراحة وإن العشاء في السادسة.

كانت فكرة الاستلقاء في السرير وإغماض عينيها فكرة مغرية.. نعم لقد استعادت وعيها من الحادثة المؤلمة في الزقاق ولكنها تحس بالتعب والإرهاق.. لقد هزت هذه التجربة وجهاً مؤكداً من وجوه ثقتها بنفسها.. إنها معتادة على الظن بأنها مكتفية ذاتياً وواسعة الحيلة.. وطوال حياتها كانت تتنقل بلا خوف من مدينة إلى أخرى غير خائفة على سلامتها الشخصية، فخورة باستقلاليتها، ومقتنعة أنها تستطيع إيجاد طريقها في أي وضع كان اعتماداً على شجاعتها.. فكرت: ربما كانت مغرورة فقط حتى الآن.. فالجوار الذي كانت فيه مؤخراً من أخطر الأماكن في العالم.. الهجوم بقصد السلب والاعتداءات أمر عادي في

نيويورك.. ولكن ويا لسخرية القدر! ها هي تهاجم في بلدة دنماركية صغيرة لطيفة، في الوقت الذي كانت تسير فيه باستمرار ليل نهار في شوارع منهاتن. تذكرت أمسية منذ أسبوعين حين عملت حتى وقت متأخر وقررت زيارة مطعم يفتح أبوابه ليل نهار لتناول وجبة منتصف ليلة سريعة.. الآن تساءلت كم كانت تسير بدقة في الخط الفاصل بين السلامة والخطر.

حاولت نسيان المسألة ولكنها لم تستطع إيقاف عقلها عن التفكير. راجعت أحداث اليوم، فمرت في ذهنها صور لكزفيار ولثالبا ولإيفا.

راحت الفكرة تلهمها الأخرى فكان أن جلست كوانتين فجأة في السرير، تدفع خصلة شعر إلى الوراء.. لمَ لا؟ كزفيار غير موجود هنا، وإيفا نائمة وإيميلي مشغولة بإعداد العشاء في المطبخ.. لن يراها أحد، ولن يعرف أحد أبداً.. كما أنها لن تتجسس أو تتطفل.. هي تبحث فقط عن معلومات ضرورية.. نفضت عنها إحساساً بالذنب.. لو تردد صحافي في التجسس لما تمت كتابة الخطيات الصحفية الكبيرة.. ثم هي لا تحاول كشف ما هو عمل إجرامي مخيف مضر، إنها مهتمة فقط بمعرفة هوية كزفيار الحقيقية. ولكنها لن تستخدم هذه المعلومة ضده.. بل المسألة أن فضولاً حاراً يدفعها لمعرفة اسمه الحقيقي.. أضف إلى ذلك أن من الحسن أن تضع في ذهنها فكرة مقالات عنه في المستقبل.

فتحت باب غرفتها وتطلعت صعوداً ونزولاً في الممر.. كان المنزل هادئاً وكأنه مهجور.. سارت في الممر شاكرة لسجاده السميك ثم فتحت باب غرفة كزفيار.. بعد نظرة سريعة على الخزائن والأدراج تبين لها أنه نادراً ما يستخدم هذه الغرفة.. ما من رجل مثله قد يكتفي بملابس قليلة كهذه.. كشفت الخزانة الصغيرة قرب السرير قصة بالدنماركية وأزواراً ذهبية لكمي قميص وبضع بطاقات عمل لا تعني لها أسماؤها شيئاً.

جاء دور المكتبة التي أملت كوانتين أن تكون مثمرة أكثر.. بدأت بالمنضدة، فبحثت بحذر في كل درج من أدراجها.. وجدت دفتر شيكات إيفا وعدة أوراق وأقلام رصاص وأقلام حبر وختماً وعلبة

مكتب أنيقة ونصف رسالة بالدنماركية، ولكنها لم ترَ ما يحمل اسم كزفيار.. فحصت شفتها غيظاً.

كانت خزانة الملفات من خشب التيك أيضاً وكانت أدراجها مفتوحة والملفات فيها معنونة بالدانماركية، لذا لم تستطع معرفة ما هي فقعدت خائبة الأمل.. التفتيش في محتويات متضادة أمر مختلف كلياً عن التفتيش في محتويات ملف واحد.. ولكن تبريرايا التي فكرت فيها لم تذهب سدىً.. أقفلت درج الملفات آسفة، واستدارت في الكرسي الأسود الدوار، فوجدت الباب مفتوحاً، وكزفيار مستند إلى إطاره وعلى فكه الصحيل عضلة صغيرة تتراقص. حاولت الابتسام لكن النظرة على وجهه كانت توقف القلب.

سأل ساخراً: «أتتسلين؟»

ابتلعت ريق حلقها الجاف كجفاف الصحراء:

- في الواقع لا.. الآن إن لم يكن لديك مانع، سأذهب لأوضب حقائبي.

لم يسمح لها بالمرور.. بل مدّ ذراعه يسدّ الباب مبتسماً ابتسامة سوداء الخطر.

- لا أعتقد أن عليّ أن أسألك عما كنت تفعلين؟

هزت كتفيها، ثم رمت شعرها الطويل إلى الخلف:

- ولمَ تزعج نفسك؟ قد لا يعجبك الرد.

انتفخت خياشيم أنفه غضباً:

- لا شيء يهمك، أليس كذلك؟

ردت بتعال: «تهمني الحقيقة».

- أية حقيقة؟ ماذا أملت أن تجدي هنا؟

نظرت كوانتين ببرود إلى ساعتها:

- العشاء في السادسة.. وعليّ أن أغيّر ثيابي...

أسكها بكتفيها:

- أيتها المخادعة الرخيصة..! لقد قطعت لي وعداً بعدم نبش الماضي

وبعدم محاولة نفض الغبار.. يا لك من كاذبة! أتعرفين أنني صدقتك فعلاً؟

ألهما ابتسامة فغضّت طرفها أمام الغضب الظاهر على وجهه. كانت فخورة بأدبيات مهنتها وأكدت له أن لا نية لديها بالبحث عن أمور حساسة.. ولكنها لم تظن أن محاولة معرفة اسمه كالتشهير به..

لم ترغب أن يعرف إلى ماذا كانت تسعى فقالت: «قليل من الفضول...»

سخر مقاطعاً:

ـ فضول! أنت واحدة من الصحافيين القذرين الذين لا يستطيعون إبعاد أيديهم القذرة عن حياة الناس الخاصة!

هزها بغضب فترنح رأسها.

أردف: كان عليّ أن أعرف أنك هكذا، ولم يكن عليّ السماح لوجهك الجميل بالوقوف في وجه حكمي الصائب!

لم تعد مهتم بأن كل ما تقوله سيزيد اشتعاله:

ـ أنت دعوتني إلى هنا.

ـ ويا لها من غلطة فادحة!

حاولت نزع ذراعيها من قبضته إنما بلا جدوى. فللمرة الثانية في ذلك النهار تحس كوانتين بالخطر.. ولكن الخطر في هذه المرة قادم من كزفيار.

رفعت ذقنها ببرود وقالت برقة:

ـ نرتكب جميعنا الهفوات.. إن لم يكن هناك من مانع..

برقت عيناه غضباً:

ـ أوه.. بل لدي ألف مانع ومانع.. وأفكر أن أعلمك درساً، أن أعاقبك.

الآن قد يجعل حلق كوانتين من الصحراء غاية استوائية رطبة.. تعرف أي نوع من الدروس يفكر فيه، لكنها واثقة أنه لن يكون لطيفاً. تذكرت صوراً في طفولتها عن صنع قفاها فجعلها هذا الذل تقاومه لكي

لم يتركها.. حاولت يائسة الشيء الوحيد الذي خطر ببالها.. تلوّت وكأنها تنظر إلى خلفه، وابتسامة مشرقة على وجهها، وقالت:

ـ إيثا.. هل تشعرين بأنك أفضل؟

انتفض كزفيار، فتركها وارتدّ إلى الخلف ليواجه الباب الفارغ..

حاولت كوانتين تجاوزه لتخرج ولكنه أمسكها مجدداً ودفعها إلى الداخل وأقفل الباب خلفه:

ـ ذكية جداً.. لكن الحيلة باءت بالفشل.

وقفت وظهرها إلى المنضدة وبداها تمسكان بحافتها.. كانت تتنفس بصعوبة، وصدرها يعلو ويهبط في وقع سريع مضطرب ولكنها قالت: «يا لسوء الحظ».

هز رأسه بإعجاب متردد:

ـ أنت باردة.. يجب أن أعطيك حقك في هذا.

غيرت كوانتين من تكتيكها، وقالت بصدق ظاهر:

ـ أعتذر.. كنت مخطئة، أرجوك سامحني.

هز كزفيار رأسه، وكان في ابتسامته ما جعل دمها يجمد.

ـ لست رجلاً يسامح أو ينسى.

خطا إليها، فارتدت إلى الخلف، لأنها أدركت مرعوبة العقاب الذي ينوي إنزاله بها.

تهاوت سيطرتها على نفسها وكأنها من رمال.. وقالت:

ـ لا تقترب مني.

خطا خطوة أخرى فأصبحت على بعد امتداد يده.

ـ لمَ لا؟

ـ إنه تصرف غير مؤدب.

ضحك: «أنت لا تعرفين معنى كلمة أدب!»

ـ أنا لا أريد..

التفت ذراعاه حولها، وكان متوحشاً في عناقه.. راحت ذراعه تشدها كقبضة من حديد بحيث انحشرت يداها بألم على صدره، ثم

حناها إلى الوراء حتى كاد شعرها يلامس سطح المنضدة.. تحت أطراف أصابعها أحست بخفقان قلبه الغاضب.

كانت يده الأخرى تمر على ظهرها.. قاومت كوانتين.. حرّكت رأسها تحت ضغط صدره، واستعدت لتغرز أظافرها في صدره.. لكن محاولاتها أشبه بمن يحاول إيقاف قطار منطلق..

لم تدر متى تحوّلت قسوته إلى شيء آخر، بذل خوفها فرحاً.. كل ما تعرفه كوانتين أن قبضته عليها خفت بحيث تمكنت من رفع يديها إلى ذراعيه لتتحسس عضلاته المشدودة.. وأفلتت منها آهة صغيرة، فمررت أصابعها في شعره..

فجأة ابتعد، فتلاشى دفئه.. فتحت كوانتين عينيها فوجدته يقف بعيداً.. كان ينظر إلى وجنتيها المتوردتين الدافئتين. جعلتها السخرية على وجهه تستقيم فقالت متلعثمة:

ـ ما الأمر؟

أصبحت يداه قبضة بيضاء وكان الانتصار المرير يضيء عينيه..

قال:

ـ لقد انتهكت حرمة خصوصياتي.. فانتهكت خصوصياتك..

ارتدّ على عقبيه، وخرج من الغرفة مغلقاً الباب وراءه.

استندت كوانتين المذهولة المصدومة إلى المنضدة ترفع يدين مرتجفتين إلى خديها.. لم تشعر قط بمثل هذا الذل.. تأوهت ألماً لتفكيرها كيف عرضت عليه نفسها دونما خجل.. وقد اعتقدت أنها قادرة على جعله يتجاوب. وما أشد ما كانت مخطئة! لقد انقلب عليها فجأة، فشعرت بأنه طعنها بسكين.

إنها على استعداد لرمي نفسها تحت الأرض لو انشقّت لها.. ولكنه تستحق غضبه.. هذا ما عرفته، وهذا ما جعلها تعجز عن الدفاع لكنها لم تفهم إلا الآن، أن فضولها كان وليد إحساس أقوى بكثير من نزوة صحافي.. الجانب العاقل فيها، ارتعد من هذه المعرفة.. كشف عناق كزفير الحار ما اعتبرته كوانتين على الدوام أكثر الأوهام الرومانسية

خداعاً.. لكنها عرفت بلا أدنى شك، أنها وقعت، رأساً على عقب، وبشكل غير معقول، في حبه.

٥٥٥

٧ ـ روح ضائعة

في البداية أنكرت الواقع.. واجهت كزفيار وإيفا بوجه هادىء، وتصرفت وكأن شيئاً لم يحدث، وقالت وداعاً وشكراً كأن لا شيء يقلقها في العالم.. لكن هذا التكتيك لم يدم إلى أبعد من باب الطائرة التي ستعود بها إلى نيويورك.. أمضت تلك الرحلة بالدموع والنحيب. في أثناء ذلك حاول جارها، وهو سيد مهذب في أواسط العمر، التصرف وكأن بكاء النساء أمر عادي في حياته.

كان خط دفاع كوانتين الثاني عملها.. طالما كانت تدفن نفسها في آخر مشروع بين يديها.. ولكن الكتابة عن كزفيار ريفينك منعت عنها نسيانه.. حاولت أن تتظاهر بأنه شخصية تجريدية وليست لحماً ودماً.. بيد أن هذا التصرف لم يساعدها في مقالتها. لم تستطع كتابة المقالة التي أعادت مستهلها مرات عديدة، وها هي ترى على منضدة الكتابة كرات ورق مجعّدة.. كانت آخر رسمة لها عن يديه من أصعب المهمات، وقد أفسدت عدة محاولات بالدموع التي تساقطت على الرسم فمحت خطوط قلمها.

عندما أنهت المقالة أخيراً، ووافق عليها رئيس التحرير، الذي أكد لها أنها قامت بعمل رائع يحدد مكان كزفيار ريفينك في عالم الفن، انضمت كوانتين إلى نادٍ رياضي لتساعد أعصابها على الهدوء.. مارست رياضة الأيروبيك وسبحت في المسبح وركبت الدراجة الثابتة مئات الأميال وتلقت التدليك. اقتضى نظام حياتها الجديد بزة للتعرق وحذاء للركض، وقصة شعر.. وكأنها في عمل للدفاع عن النفس، أمرت

مصفف الشعر بالتخلص من شعرها كله، وتجعيد ما تبقى منه. وعندما انتهى المصفف من عمله نظرت إلى المرآة فرأت صبياً متشرداً، كان شعرها الأسود في كومة متجعدة حول وجهها البيضاوي وبدت أكثر نحولاً وازدادت عيناها اتساعاً وبان على وجنتيها أثر التعب.

كان أول شخص علق على مظهرها المختلف غراي نورثوود، رئيس التحرير الذي سألها يوم التقيا لغداء عمل:

ـ هل أنت واثقة أنك لم تكوني تتعبين نفسك في العمل؟ تبدين بحاجة للراحة.

هزت كوانتين رأسها نفياً: «لقد بدأت رياضة الجري».

عبس في وجهها بمكر: «يفترض أن تحسن رياضة الركض صحتك، لا أن تدمرها».

ـ ما زلت في فترة انتقالية.

ـ انتقالية؟ وما هذا بحق الله؟

ـ عندما ينتقل جسم الإنسان من الكسل إلى النشاط والحركة، يتعرض إلى حالة غير ملائمة مؤقتة.

نظر إليها غراي بعدم تصديق:

ـ لا تقولي لي مثل هذه السخافات كوانتين.. تبدين بحاجة إلى أسبوع راحة في الباهاما، والاستلقاء تحت أشعة الشمس.

ابتسمت له: أنا بخير.. وأتوق للعودة إلى العمل في مقالة عن النوم.

هز رأسه ولكنه عاد إلى الملاحظات التي خطها على ورقة قرب فنجان قهوته، وقال بهز كتفيه:

ـ حسناً.. إنها جنازتك.

كان لمقام «النوم» سحر خاص لكوانتين هو أبعد بكثير من قيمته الأصلية.. فهي لم تنم ليلة كاملة منذ عادت من الدنمارك.. كانت تستيقظ في ساعات غريبة من الليل، وفي بعض الأحيان تجد أنها لم تنم أكثر من ساعة ومع الوقت باتت تألف تحركات الجوار في الساعات الأولى

للصباح. لم تكن تعرف من قبل مثلاً أن السيدة ديرك، الساكنة في الطابق نفسه تخرج القمامة من شقتها في تمام الخامسة والنصف من صباح كل يوم، وأن حارس البناية النهاري يصل إلى عمله قبل شروق الشمس.

تاقت للانغماس في بحث دقيق عن النوم في محاولة لشفاء نفسها.. قابلت أطباء وأخصائيين نفسيين ومحللي النوم، فوجدت أن لا شفاء للقلق الذي ينبع من شيء مجنون، كحب غير مرغوب فيه.

غير مرغوب.. كرهت كوانتين الكلمة إذ أظهرتها كبطلة قصة من العهد الفيكتوري.. أجبرت نفسها على العمل الشاق والتمرينات المرهقة وأخذت تخرج مع رجل التقته وهو أحد محللي النوم، وانتهى بها الأمر إلى الاعتذار والانسحاب مدعية أنها تعاني من صداع.. لن يجعلها شيء تنسى كزفير.

كان ستان، زوج أمها، يقول لها دائماً إن الزمن كفيل بشفاء كل شيء. وطالما وجدت كوانتين الراحة في التفكير بأن هناك في نقطة ما على الطريق، ستحل المشكلة نفسها.. أو تتلاشى.. وتطلعت بشوق إلى اليوم الذي لن يتوقف فيه قلبها كلما رأت شعراً أشقر وكتفين عريضتين، وإلى اليوم الذي تستعيد فيه كلمة «فنان» معناها الطبيعي.

تجاهلت في البداية نصيحة غراي نورثوود، ولكن ما إن حلّ عيد الميلاد حتى كانت مستعدة لأخذ إجازة. كانت شوارع منهاتن مغطاة بثلج خفيف موحل وكان يصبح جليداً حين تنخفض درجة الحرارة إلى الصفر وما دون.. أما الريح القادمة من فوق نهر هدسن فكانت تلتف حول ناطحات السحاب، لتضرب وجهها بحقد مرير. بدت الاحتفالات السنوية فارغة ومؤلمة، حتى واجهات المحلات الكبيرة الشهيرة بزينة الميلاد لم تستطع أن تثير ذرة اهتمام فيها.

سافرت إلى فلوريدا لقضاء أسبوع مع أمها ليزا وزوجها ستان.. كانت أمها كالعادة مشغولة، وهي امرأة صغيرة الجسم، جميلة، تحب الطبخ والتزيين، ولكنها تفتقر إلى العقل السليم فعقلها لا يزيد إدراكه

عن عقل طفل.. كانت تتميز بالعجز الأنثوي الذي يستمتع به الرجال.. فهي لا تستطيع موازنة دفتر شيكاتها، أو تغيير إطار سيارتها، وتلجأ إلى أي رجل تصل يدها إليه.. وغالباً ما كانت كوانتين ترتعد من تصرف أمها وهي التي تفخر باستقلاليتها.. ولكن الشخص الوحيد الذي قاوم هذه الرقة وهذا الاستسلام هو والد كوانتين.

يملك ستان وليزا منزلاً في جنوبي ميامي، وهو مؤلف من غرفتي نوم في المجمّع ومسبح وصونا، وملعب تنس يبعد أربعة أبنية عن المحيط الأطلسي. ستان الذي يشارك كوانتين حبها للمحيط غالباً ما كان يتمشى معها على الشاطىء. كانا يسيران ببطء بسبب عرج ستان الظاهر، ويتوقفان دائماً للراحة، وكانت تلك النزهات تهدىء أعصاب كوانتين وتمنحها فرصة لمراقبة النورس، وقفزات الموج الشرسة على الرمال البيضاء.

سألها ستان:

- وهل أنجزت المقالة المتعلقة بالنوم؟

- تقريباً.. بعد إعادة صياغة واحدة تنتهي.

نظرت إليه بمحبة.. كان ستان كالأب الذي لم تجده قطّ، هو رجل قصير، قوي البنية، شعره أشيب وعيناه بنيتان دافئتان، ووجهه متغضن. كان يهتم بليزا كثيراً ويحبها، وقد أخذ ولديها تحت جناحيه وكأنهما ولداه فمنحهما الحماية والدعم وفرحة حياة عائلية طبيعية سعيدة، وأحاطهما بالحب ولهذا هي ممتنة له.

سأل: «ماذا في الأفق إذن؟»

- الله يعلم.. شيء ما آتٍ.

- تبدين متعبة حبيبتي.

عرفت أن المراوغة التي مارستها على غراي نورثوود، لن تنجح مع ستان.. وتذكرت الأوقات التي كانت تحاول فيها مع أخيها مورغان الكذب للفرار من موقف صعب، كما يفعل الأطفال عادة، وكانت أمها تميل إلى تصديق كل ما يقولانه، أما ستان فكان له عين نافذة، وغريزة

لكشف الحقيقة، ولم يتمكنا قط من خداعه.

أجابت: «على أن أبطىء من انطلاقي على ما أظن».

نظر إليها ستان بمكر.

- أواثقة ان لا شيء آخر هناك؟

سألت بحذر: «مثل ماذا؟»

رد بصراحة:

- رجل.. فلم يسبق لي أن رأيتك على هذه الدرجة من التوتر يا حبيبتي.. أرى التوتر الذي يحدق بك.

كان إغراء الكلام غامراً فاعترفت:

- لقد قابلت شخصاً.. لكن الأمر لم ينجح.

- لماذا؟

- إنه.. لا يحبني.

- وكيف يستطيع ألا يحبك؟

ارتدت تعانقه باندفاع:

- لو كنت معي طوال الوقت لاستوليت على العالم!

رد بإصرار «أنا أقصد ما أقول كوني.. أنت جميلة، وموهوبة.. ولا شك أن على هذا الفتى أن يصلح عيبه».

رفعت كوانتين حفنة رمل بيدها فتركتها تنساب بين أصابعها وقالت معترفة:

- أنا المخطئة.. جزئياً.

- لماذا؟

- أنا.. حسناً بالاختصار لقد جرحته. وثق بي، فخذلته.

- ألم تتمكني من الاعتذار؟ ألم تقولي إنك آسفة؟

تنهدت:

- ليس هذا الحل المناسب.

صمت ستان لحظات، ثم نظر إلى الأفق إلى حيث يلتقي اخضرار المحيط بالسماء الزرقاء المشرقة:

- لم أخبر أحداً بهذا.. لكن أمك جرحتني يوماً في الصميم وكدت لا أعود إليها.

نظرت إليه بدهشة: «بعد زواجكما؟».

- بل قبله.. كنت قد طلبت يدها ووافقت.. ولكنني اكتشفت فيما بعد أنها كانت تراسل أباك.

- أبي!

- صدقي أو لا تصدقي، كانت تراسل أباك.. كانت محاولة أخيرة منها لرؤية ما إذا كان بإمكانهما إعادة المياه إلى مجاريها.

- لكن هذا غير معقول، بعد الطريقة التي عاملها بها، لا شك كانت مجنونة!

- أو لعلها كانت تؤمن بأن الشيطان الذي تعرفه أفضل من الذي لا تعرفه.. وكانت تواجه التردد الذي يسبق الزواج خاصة بعد زواج فاشل.. واستطعت أن أتفهم هذا ولكنني تألمت عندما رأيت ما كتبت له.

نظرت إليه بشفقة:

- أوه.. ستان.. ليتني عرفت..

- كنت في الحادية عشرة حبيبتي.. أصغر من أن تفهمي.

تنهد متذكراً أمه:

- طالما أحببت أمك بجنون.. أعرف أنها غالباً ما تكون سخيفة في ما يتعلق بإنجاز بعض الأمور فلا تستطيع تخليص نفسها من كيس ورقي وقع على رأسها.. لكن.. أنا أحب هذه المرأة.. وطالما أحببتها..

التفت إلى كوانتين مبتسماً:

- سم هذا ما شئت فلا أدري.

قالت بلطف: «أنا سعيدة لهذا».

- لقد أدرت أذناً صمّاء.. وتصرفت كأنني لم أر الرسالة أبداً. وحسب علمي أن الرسالة لم ترسل.. وأنا حتى اليوم سعيد لأنني لم أتركها.. فلو تركتها لما عدت..

ربت يد كوانتين بحنان: «وانظري ما كان فاتني!»

جلسا بصمت لدقائق، كانت كوانتين تراقب الموج الأبيض يتدحرج على الشاطىء مرغياً على الرمال مرسلاً زبداً أبيض فوق مساحات شاسعة من الرمال. ثم قالت أخيراً:

- أتقول إنه.. سيسامحني؟

- أقول إن الإساءة إلى ثقة أحد ليست نهاية العالم، فإن كانت «الكيمياء» بينكما سليمة وإن كان التجاذب موجوداً.. فمن السهل التغلب على العراقيل.

- لا أدري إن كان هذا ممكناً.

صوّب عينيه البنيتين الدافئتين إليها:

- هل تحبينه كوني؟

ردت بصوت منخفض: أجل.

قال واثقاً: «سيعود إذن.. سترين».

وجدا أمها تعمل في المطبخ، تدندن لنفسها وهي تطبخ.

سألتهما: «هل استمتعتما بنزهتكما؟»

لثم ستان وجنة زوجته الناعمة:

- كانت نزهة رائعة.

- إن هذا عظيم! ليس هناك ما هو أفضل من التنزه قرب المحيط لجلاء الفكر.. طالما أحسست أنني بهذا أتخلص من خيوط العنكبوت التي تحيط بي.

تابعت هذرها المرح، أما كوانتين فكانت تتبادل النظرات مع ستان.. إنهما معتادان على ثرثرتها، وعلى طريقتها في عدم التقاط لمحة عما يجري حولها.. لن تعرف أبداً أن كوانتين غير سعيدة أو أن ستان قلق.. وهذا أمر مثالي منها.. ولكن كوانتين تحمد أن من المريح أن تبقى أمها في أحلك المصاعب والأزمات، هي نفسها.

دعمها تفاؤل ستان حوالي أسبوع ولكنها بعد ذاك الأسبوع سقطت فجأة. كلما أمعنت التفكير في كلماته كلما بدا لها أنها لا تنطبق عليها

وعلى كزفيار. لا تنكر أن التجاذب موجود، ولكنها مقتنعة بأنه غير قوي بما فيه الكفاية ليتخطى آخر مشهد مرير بينهما.. لقد مرت ستة أسابيع منذ غادرت الدنمارك ومنذ ذاك الوقت لم تسمع عنه شيئاً. كان غيابه الدليل القوي على عدم اهتمامه بها، هذا إن كان موجوداً أصلاً.

أنجزت مقالة «النوم».. وبدأت تتصل برؤساء التحرير من أجل إيجاد عمل جديد.. كانت تكره ضغط ازدياد المهمات عليها ولكنها تكره في الوقت ذاته الجمود.. هي عادة تملأ أوقات الفراغ بالتبضع وإنفاق المال أو بالدوران في شقتها وكأنها روح ضائعة.. في هذا الأسبوع بالذات، قامت بالعملين معاً أخيراً، وبسبب يأسها من سماع صوت مألوف اتصلت بسولين.

صاحت سولين بسعادة:

- كوانتين! لم نسمع عنك شيئاً منذ أسابيع! كيف كانت فلوريدا؟

- عظيمة..

- متى تأتين لرؤيتنا؟ أخوك مشتاق إليك كثيراً، وكذلك أنا، والنصف يشتاق إليك.

- النصف؟

- جنيني الذي يتخبط طوال الليل.. إنه لا ينام أبداً ويرى الأطباء أنه سيكون رياضياً رائعاً، ولقد سجلناه منذ الآن في فريق كرة القدم.

- هو؟ ماذا لو كانت هي؟

- نحن هنا متحررون.. بإمكان الفتيات لعب الكرة أيضاً.

- هل فكرتما في الأسماء؟

سمعت تنهيدة سولين:

- موري يدفعني إلى الجنون! اشترينا خمسة كتب عن الأسماء ولم يجد اسماً يعجبه.. سأكون سعيدة باسم عادي كجوورين أو مارلين.. ولكن أخاك يميل إلى الأسماء الغريبة.

مازحتها كوانتين: «طالما كان غريب الأطوار».

ضحكت سولين: «ألا أعرف هذا؟ أتصدقين أنه قرر إقامة حفلة

كوكتيل يوم الجمعة القادم؟»

تعرف كوانتين كم يكره مورغان حفلات الكوكتيل، وصاحت:

- موري؟ لا شك أن الزبون مهم.

- اسمه ساندرز وهو يدير شركة استيراد وتصدير ضخمة وهو سيقيم معنا.

سألتها كوانتين باهتمام:

- أواثقة من أنك ستتدبرين أمورك؟

آخر ما سمعته كوانتين أن الطبيب أمر زوجة أخيها بالراحة والهدوء.

- أوه.. بالتأكيد.. سيكون الأمر كتناول قطعة حلوى.

ولكن رد سولين المفعم بالبهجة الظاهرة لم يخدع كوانتين، فسألت:

- كم شخصاً سيحضر الحفلة؟

- حوالي خمسين شخصاً.

- خمسين! لا يمكنك مواجهة هذا العدد.

- سيستأجر موري من يقدم الطعام والشراب.

اتخذت كوانتين قراراً سريعاً: أنا قادمة.

- ماذا؟

- أنا قادمة لأساعدك.

احتجت بصوت مرعوب: «لست مضطرة.. لم أكن ألمح إلى شيء كهذا».

- أعرف هذا.

- لكنك مشغولة جداً..

- جهزي غرفة الضيوف.. سأصل صباح الجمعة.

عندما وصلت وجدت سولين تنظف غرفة الجلوس بالمكنسة الكهربائية.. كانت خصلات شعرها البني مربوطة إلى الخلف بمنديل فاستدارت إلى أنبوب المكنسة ونظرت إلى كوانتين نظرة المصدوم:

- يا إلهي! ماذا فعلت بشعرك؟

مررت كوانتين يدها في شعرها المجعد الكثيف.. لقد اشتاقت إلى ملمسه على عنقها، وثقله الحريري على كتفيها. وقالت:

- كنت بحاجة إلى تغيير مظهري.

وضعت المكنسة الكهربائية من يدها، واستدارت حولها:

- إنه ظريف، أتعلمين.. أظنني سأحبه.

- أتعتقدين هذا؟!

- تبدين أصغر عمراً وأرق عوداً.. ستكونين رائعة.

مالت تلثم وجه كوانتين.. فتبادلتا الابتسام ثم قالت كوانتين:

- أنت محبة، قلبك كبير.

أشارت سولين إلى بطنها المنتفخ قليلاً:

- بل بطني كبيرة.

تشاركتا إبريق قهوة في مطبخ سولين البراق، وتحدثتا عن الحفلة المتوقعة.. سألت كوانتين لماذا لم تطلب سولين من زوجها أن يساعدها.. فتنهدت:

- إنه يعاني من ضغط عمل في المكتب لذا كرهت أن أطلب منه.

- ما طبيعة هذا الضغط؟

- لقد طلبه هذا الرجل ساندرز بشكل خاص.. ويشعر موري أن عليه أن يعمل بجهد وإلا أوكل العمل إلى أحد سواه.

- هذا سخيف..! من أين أتته هذه الفكرة؟

- إنه هكذا دائماً.. أعرف أنه يكثر من الضغط على نفسه.. لكنه يصدق فعلاً أن هذا عمل حقيقي.. وهذا أحد أسباب نجاحه، هو يعطي العمل وقته منة بالمئة.

- وهذا أيضاً سبب حفلة الكوكتيل؟ وضيف المنزل غير المرغوب فيه؟

احتجت سولين:

- ليس غير مرغوب فيه.. ولكنه سيأتي في وقت غير مناسب بالنسبة لي.

- متى تبدأ الحفلة؟
- في السادسة والنصف.. سيبقى موري مع ساندرز في المدينة.. وقد يصلان بعد الضيوف.
- من هو على أي حال؟
هزت سولين رأسها:
- لا أعرف.. لقد جاء من حيث لا أدري يسأل عن موري.. التقاه مرة واحدة قبل اليوم.. وسمعت أنه وسيم بهي الطلعة وأعزب.
رفعت كوانتين يدها محتجة:
- رجاء، لا أريد مساعي للزواج.. أرجوك! لم أعد أهتم بالرجال.
صبت سولين فنجان قهوة آخر.
- ومتى كنت مهتمة بالرجال.. في الواقع، لولا معرفتي بأمورك جيداً لقلت إنك..
نظرت كوانتين إلى زوجة أخيها بدهشة:
- لقلت ماذا؟
أشاحت سولين بنظرها وهي تسكب الحليب فوق القهوة:
- لقلت.. إنك على علاقة حب فاشلة.
- ما هذا بعادتي.. من أوحى إليك بمثل هذه الفكرة المجنونة؟
نظرت إليها سولين بمكر:
- قصة الشعر الجديدة.. والتجاويف في خديك.. والدوائر التي تكاد تصبح ليلكية تحت عينيك.. كوني تبدين وكأنك لم تذوقي النوم منذ أيام؟
حركت كوانتين عن غير وعي قهوتها التي حركت جيداً من قبل:
- كنت أعمل بمشقة.
- هذا ما تقولينه دائماً.
وضعت يديها على أسفل ظهرها وتمطت:
- سأعود إلى منفضة الغبار والمكنسة.
وقفت كوانتين أيضاً:

- لا.. بل سأقوم بالتنظيف نيابة عنك على أن تنامي قليلاً.
قالت سولين مرتاعة:
- لم أدعك لتنظفي البيت نيابة عني!
- لقد دعوت نفسي.. وأنوي التنظيف ونفض الغبار..
- لكن هذه مشكلتي.. وليست مشكلتك.
- ماذا قال الطبيب؟
- قال.. قال.. إن عليّ أن أعمل ببطء و..
- بل قال لا تقومي بأي عمل منزلي ثقيل وطلب منك ملازمة السرير أكبر وقت ممكن.
قالت سولين بتحد: أخبرك موري بهذا.. صحيح؟
أمسكتها كوانتين بذراعها واقتادتها باتجاه غرفة النوم.
- لا أكشف أبداً عن مصادر معلوماتي.
بعد ثلاث ساعات كان المنزل يبرق نظافة. فقد غسلت كوانتين أرض الردهة ونظفت كل السجاد، نفضت الغبار عن كل الأثاث، ووزعت منافض السكائر ورتبت غرفة الجلوس في سبيل مزيد من الاتساع، وأفرغت الخزانة الصغيرة الأمامية من أجل معاطف الضيوف.. فأصبح المنزل خالياً من أي عيب.
ارتقت كوانتين السلم إلى الطابق العلوي، ووقفت خارج باب غرفة النوم الرئيسية بضع ثوان.. لم تسمع صوتاً من الداخل، وأملت أن تكون سولين نائمة. ألقت نظرة على غرفة الضيوف الأخرى الملاصقة لغرفتها والتي تشاركها الحمام.. كانت سولين قد رتبت الفراش ولكن كوانتين وضعت المناشف ونفضت غبار الطاولات الصغيرة وألقت نظرة على الخزانة وما فيها من مشاجب. وكانت تأمل أن يعجب السيد ساندرز بالعمل الذي يجري احتفاء به وبإقامته، ولكنها تفترض أنه لن يلاحظ هذا. فالرجال هكذا عادة، يعتبرون من المسلمات أن يكون طعامهم جاهزاً، وثيابهم مغسولة، وأغطية أسرتهم نظيفة.. وقد يكون أسوأ من هذا.. فطالما لاحظت أن الأثرياء الوسيمين هم في الغالب أكثر الرجال

استحمت كوانتين في مغطس ساخن يتصاعد البخار منه. فاستلقت بين طبقات الصابون المعطر، تاركة عضلاتها تسترخي، وعقلها يسرح.. فكرت في تلكن سولين الذكي عن علاقة حب فاشلة، وتمنت ألا تجمل ما في قلبها ظاهراً هكذا. هي تشتاق إلى كوانتين القديمة.. المرأة التي يرتكز توازنها على عدم الاهتمام.. ما أسهل أن تُظهر نفسها هادئة ومشاعرها متحررة من أي ارتباط.. في الأيام الخوالي كانت تزدري صديقاتها ممن يسمحن للرجال بسلبهن عقولهن.. لقد سمعت قصصهن وشعرت بالتفوق. لن تسمح لنفسها بالوقوع فريسة للعذاب من أجل رجل.

لكنها سرعان ما اكتشفت أنها ليست فريدة من نوعها.. إذ انضمّت رغماً عنها إلى زمر الأحبة التعساء.. لكن هذا أفضل من لا شيء.

تحركت بقلق في المغطس، وأخذت قطعة منشفة صغيرة تدعك فيها وجهها بشدة.. عليها أن تنسى وجود كزفيار ريشينك.. فإن ظلت على هذا المستوى المجنون من التفكير، وقلة النوم والطعام، فستجد نفسها في النهاية مريضة، غير قادرة على العمل، مرمية تحت رحمة وعطف الأصدقاء والأقارب.

نهضت كوانتين من المغطس فأمسكت المنشفة ولفت جسمها بها ثم مدت يدها لتبدأ بارتداء ملابسها ولكنها لم تجدها.. كانت مشغولة في إنهاء ما يلزم في غرفة الضيف، فنسيت إحضار ملابسها.

خطت نحو باب الحمام تهمّ بالخروج، وسمعت صوت باب يفتح ثم صوت شخص يتحرك في غرفة الضيف.. هذه سولين استيقظت وها هي تلقي نظرة على الغرفة.

نادت بصوت مرتفع:

- سولين.. هلا أحضرت لي ملابسي إنها على السرير.

توقفت الأقدام لحظة ثم ابتعدت، وعادت تتحرك إلى باب الحمام.. استندت إلى المغسلة تمسح المرآة المغشاة ببخار الماء بيد.. كانت واقفة على رؤوس أصابعها وقطرات الماء تتلألأ على كتفيها العاريتين وذراعاها

انفتح باب الحمام، فقالت وهي لا تزال تنظر في المرآة:

- شكراً.. أفضل ارتداء الثياب في الحمام.

- حقاً؟

جعلها الصوت العميق الجهوري تستدير مذهولة.. كان كزفيار ريشينك واقفاً في الباب مرتدياً بزة رمادية أنيقة وفي يديه ثيابها.. أخذت عيناه تجربان ببطء عليها.. ثم ارتفعتا لتلتقيا عينيها المصدومتين، كانت عيناه الرماديتان تنظران إليها نظرة ملؤها التسلية والسخرية.

***

٨ ـ هل الحب أعمى؟

سحبت نفساً: «أنت؟!»

قاومت اندفاعاً للفرار.. ولكن ارتفاع رأسه المتعجرف الأشقر جعلها تقرر مواجهته بوقاحة فهي ترتدي أكثر مما ترتديه النساء على البحر. مدت يدها وقالت: «لباي من فضلك».

هز رأسه ساخراً، ثم استجاب لطلبها.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ أنا مدعو.

ـ ولماذا..

تسمّرت في مكانها:

ـ أنت السيد ساندرز؟

ـ لأكون دقيقاً أنا زائي ساندرز.

ارتدّت تواجهه.

ـ كان اسم أبيك ساندرز؟

هز رأسه إيجاباً.

تابعت ببطء:

ـ في الدنمارك أنت كزفيار ريفينك وفي الولايات المتحدة أنت زائي ساندرز.

ضحك ساخراً: أنت ذكية جداً بالنسبة لصحافية.

تجاهلت سخريته فهي تريد أن تتبين الحقائق:

ـ وتدير عمل استيراد وتصدير؟

ـ أجل.. نحن نبيع الأثاث الدنماركي والمفروشات اليدوية للمصممين الأميركيين.. كان عمل أبي، وقد ورثته أنا وأمي.

ـ وتعيش في ماليبو.

ـ أجل.

وسمى لها عنواناً قريباً من عنوانها كاد يخطف أنفاسها، فطوال الوقت الذي كانت تظنه فيه بعيداً عنها آلاف الأميال كان يعيش وينام، ويأكل، على رمية حجر منها.. تساءلت كم مرة كادت طريقاهما تتلاقيان.. كم مرة فاتهما اللقاء.

فجأة أدركت أن نظرته مركزة على ساقيها المديدتين.. فرفعت ذقنها في محاولة أخيرة لإبداء الوقار، وقالت بلهجة ذات مغزىً:

ـ هلاّ سمحت.

ابتسم ابتسامة كسولة مثيرة للسخط:

ـ طبعاً.. أراك لاحقاً.

أغلق الباب خلفه، وتهاوت كوانتين على حافة المغطس تنظر إلى صورتها في المرآة.. حدقت عينان رماديتان في انعكاس صورتها في المرآة بعدم تصديق.. وجنتاها متوردتان محترقتان من المرارة والإحراج.. خصلات الشعر الأسود ملتصقة ببشرتها الرطبة على جبينها.

إذن لقد سعى كزفيار إليها.. بعد كل أسابيع البؤس واليأس عاد ليظهر من حيث لا تدري. تعرف أنه استخدم مؤسسة مورغان لسبب واحد، هو الوصول إلى الاتصال بها مجدداً.. كان بإمكانه أن يتصل بها أو يراسلها ولكن طريقة ظهوره مجدداً مثالية بالنسبة له.. وماذا عن الطريقة الخسيسة التي استخدمها لتسافر إلى الدنمارك؟ إنه محتال، شرير، غير صادق.. تساءلت عمّا يريده منها الآن.. قد يعزو ستان ظهوره إلى انتصار التفاعلات الكيماوية ولكنها أكثر واقعية وهي تعرف أنه لا يهتم بها كامرأة.. لو كان محباً ولهان لسعى إلى باب دارها منذ أسابيع.. أضف إلى هذا أنه أوضح بجلاء مؤلم مدى احتقاره لها.

ارتدت ملابسها... كان فستاناً كحلياً من الحرير، له حمالات

أكتاف دقيقة، وتنورة ضيقة، مع فتحة مرتفعة إلى جانب واحد.. كانت ساقاها المدببتان ملتفتين بالنايلون وقدماها تنتعلان صندلاً فضياً مرتفع الكعبين.. نظرت إلى المرآة فعبست، لو لم تقص شعرها في لحظة جنون لرفعته الآن إلى رأسها بشكل ملوكي، ولكنها هزت خصلاتها القصيرة المجعدة وتنهدت.. لم تدرك أن شعرها القصير يبرز رشاقة طول عنقها واتساع عينيها.

عندما نزلت وجدت أن عدة ضيوف وصلوا. كان موري وسولين عند الباب الأمامي يستقبلان المدعوين، أخذت كوانتين كوب عصير من أحد السقاة وشقت طريقها نحوهما.. سرها أن ترى سولين مستعيدة عافيتها بعد تلك الفيلولة والدوائر تحت عينيها البنيتين اختفت ولم تعد تبدو مرهقة.. كانت ترتدي فستان مخمل أحمر وقد جعل لونه وجنتيها مشرقتين.

قالت كوانتين وهي تلثمها:

ـ تبدين رائعة.. وآه.. رائحتك لذيذة كذلك.

برقت عيناها: «هذا عطر أهداني إياه ضيفنا. هل التقيت به؟»

ـ أنا...

قال موري: ها هو زائري، أود أن أعرفك إلى أختي كوانتين.

كانت اللحظة مربكة بدون أدنى شك.. ترددت كوانتين، متسائلة عما إذا كان كزفيار سيكشف ما بينهما.. وكانت تعرف سولين جيداً فلو عرفت أن كوانتين وكزفيار على تعارف لثارت ريبتها، ولبدأت بانتزاع التفاصيل وكأنها كلب صيد يلاحق الطريدة.

نظر إليها كزفيار مبتسماً ابتسامة عادية:

ـ أنا في غاية السرور.

تنفست الصعداء وابتسمت له:

ـ من دواعي سروري الالتقاء بك.

وصافحته بأصابع ضاعت في كفه الكبيرة.

برقت العينان الزرقاوان لها: «الشعور متبادل».

عندما ترك يدها بعد طول مدة مرر إصبعه على راحة يدها الحساسة.

كان الاحتفاظ بالابتسامة أكثر مما تستطيعه كوانتين. كانت سولين تنظر إليها بفضول وحتى مورغان عبس مرتبكاً مع أنه عادة لا يلاحظ شيئاً، فلو اندلعت الحرب العالمية الثالثة لمرت من تحت أنفه دون أن يدري.. كبحت اندفاعاً كاد يدفعها إلى رمي كأس العصير في وجه كزفيار.

ـ أليس من الأفضل الاختلاط بسائر المدعوين؟.. أراهم مهملين.

في الواقع كانت الخفلة منطلقة بروعة بدون مساعدة أحد، فيها ساقيان يقدمان الضيافة المعتادة. كان المدعوين يتحلقون جماعات جماعات في غرفة الجلوس، وغرفة الطعام، والمكتبة.. كانت حفلة مثالية جديرة بنيويورك. النساء أنيقات مزدانات بأفضل الحلي والرجال في ثياب عمل، وحديثهم يدور في مجالات العمل.. بدا أن موري وزائفي مطلوبين كثيراً، وجدت أن أخاها يتصرف بشكل رائع واستثنائي لأنه يكره حفلات الكوكتيل.

ساعدت كوانتين، الخجولة عادة، زوجة أخيها سولين في الإشراف على تقديم الشراب والطعام، والتجول بين الحضور.. وكانت أحياناً تنضم إلى حديث، لكن في معظم الأوقات كانت تراقب وتصغي.. وكانت مع جماعة من المدعوين حين وجدها كزفيار، فدنا منها يمسك مرفقها بقبضته الثابتة، متمتماً:

ـ لماذا أشعر أنك تتجنبينني؟

عمياء كوانتين إن لم تلاحظ نظرات الحسد من النساء الأخريات. ردت مبتسمة:

ـ لأنني فعلاً أتجنبك.

تجاهل ردها السليط والخارج من بين أسنانها بابتسامة:

ـ تبدين جميلة..

قالت ببرود: «شكراً لك».

التوت شفتاه تسلية: «أنت جميلة في كل الأحوال».

لم تر كوانتين شيئاً مضحكاً في قوله، فردت بحدة وقد تذكرت أنه دخل عليها إلى الحمام بدون استئذان:

- كان تصرفاً قذراً ما فعلته.

رفع حاجباً ذهبياً ساخراً:

- مساعدة آنسة في محنة!

- تعرف أنني ظننتك سولين.

- أخشى أنني لم أستطع المقاومة.. كان إغراء أن أجدك غافلة أمراً أكبر من إرادتي.

لم تجد رداً مناسباً لتحطيم متعته الظاهرة بانزعاجها، وكانت على وشك أن ترتد مبتعدة عنه لولا قبضة أصابعه على ذراعها.

سأل: «لماذا قصصت شعرك؟»

- ألا يعجبك؟

قوّمتها العينان الزرقاوان:

- يناسبك.. إنه أقل تشابكاً، أكثر رقة.

- احتجت إلى تغيير صورتي.

- وهل تعبت من كوانتين القديمة؟

كان هناك ألف معنى ومعنى من وراء سؤاله.. وفكرت كوانتين أنها تعرفها جيداً.. فكبحت اندفاعاً لصفع خده النحيل الأسمر.

- لم تكن مثيرة للاهتمام كثيراً.. أتذكر؟

- لا أوافقك على ذلك الآن كما لم أوافقك على ذلك يومذاك.. إنها مزيج مذهل من الصدق، والخداع.

تعالى غضب كوانتين:

- لماذا لا تستطيع نسيان هذا؟ لقد اعتذرت عن.. عن..

قال بقسوة: «عن التجسس؟».

- حسناً.. كنت أتجسس ولكنك السبب.. لولا جعلك هويتك الأصلية لغزاً لما حدث ما حدث.

قال ساخراً: «يا له من منطق غريب.. إذن أنا سبب تصرفك غير

المهني؟»

اسودت عيناها الرماديتان غضباً:

- أريد أن أعرف لماذا أردت أن أكون هناك أصلاً، ما دمت مصمماً على الحفاظ على خصوصياتك الثمينة؟

لن تعرف أبداً ما هو رده.. ففي تلك اللحظة وصل موري ونظرة قلق على وجهه:

- زاڤي.. لا أظنك التقيت ستافورد.. يريد أن يكلمك عن التقويم الذي أجريناه حول..

وابتعدا فأغمضت كوانتين عينيها. شعرت بأن الأسابيع الفاصلة بين لقائهما هذا ولقائهما الأخير تبخرت في الهواء، إذ لم يتغير أي شيء أساسي بينهما.. فما زال الغضب والتجاذب موجودين، على الأقل من ناحيتها.. عندما وقف كزافيار قربها لم تتمكن من تخفيف خفقات قلبها السريعة أو منع الارتعاش عن ركبتيها.. إن جاذبيته قوية وفريدة من نوعها.

- مذهل.. أليس كذلك؟

فتحت عينيها فوجدت سولين تقف قربها.

سألت: «من؟»

- زاڤي ساندرز.

- أوه.. هو.

رفعت سولين عينيها البنيتين إلى السماء، وقلدتها:

- أوه.. هو.. حباً بالله كوني.. رجل مذهل ديناميكي، يأتي مختالاً لتصطادبه، ولا تلاحظين هذا؟

- أنا غير مهتمة به.

- هل أنت مجنونة؟ يسيل لعاب كل امرأة عليه.

ردت بوقار: «أنا لا يسيل لعابي».

رفعت سولين كتفيها، ونظرت إلى كوانتين مصممة:

- حسناً.. قد تكونين أعمى قلباً من أن تري الفرصة حين تقع في

حضنك.. لكن أنا هنا لأتأكد من عدم تسلله هارباً.

ربتت ذراع كوانتين بمحبة:

- ستشكريني يوماً.. أعرف هذا.

نفذت سولين ويا لسوء الحظ كلامها، فرمت زافي إلى كوانتين في كل لحظة ممكنة. فحينما عرض زافي تنظيف الصحون بعد فطور صباح السبت، ادعت أن العمل كثير عليه وطوعت كوانتين لتساعده. وعندما لعبوا «البريدج» في الليل، أصرت سولين على أن يكونا شريكين. وحينما قال موري إنه سيخرج ليشتري جريدة يوم الأحد.. اقترحت أن تذهب كوانتين نيابة عنه، وألحت إلى أن على زافي مرافقتها.. وكان بإمكان كوانتين لوي عنقها على هذا.. لكن حين ذكرت لها سرّاً أنها تمادت كثيراً، نظرت إليها زوجة أخيها كالمجنونة.. وقالت إن زافي عدا وسامته وبهائه، أكثر الرجال فتنة.

اعترفت كوانتين في نفسها أن بإمكان زافي أن يفتن الطيور في أوكارها. أمضى ساعات يتحدث إلى موري عن العمل وعن الهوايات التي يتشاركانها، وأبدى فضولاً كبيراً بشأن حياكة سولين. وطرح أسئلة كثيرة عن نولها وأشغالها كما أبدى اهتماماً بحملها، وناقش أمور الطفل ولوازمه بتفهم مدهش.. وعندما سألته سولين ضاحكة من أين جلب خبرته اعترف أنه يمضي ساعات مع ابنة أخته كاترينا وأخيها الصغير وأنه يأخذهما في عطلات نهاية الأسبوع لتتمكن أخته وزوجها من الراحة بضعة أيام..

راقبت كوانتين موري وسولين يقعان تحت سحر زافي، وأرادت أن تصرّ أسنانها غيظاً.. كان ضيفاً عادياً لا يشبه الأثرياء المتعجرفين الذين تصورته واحداً منهم.. وتساءلت عما إذا أخطأت في عدم اعترافها لسولين، فلو عرفت زوجة أخيها عاقبة الجمع بينهما لما اهتمت هكذا بسحر زافي الرجولي.

الحقيقة أن كوانتين كانت تعض على كرة الإذلال.. فقد بدا زافي متسلياً بما تقوم به سولين من حيل واستجاب لها بإرادته.. لكن عندما

كانا يصيحان بمفردهما، كان يتصرف كسيد مهذب، فيترك الحديث بسيطاً ولا يقترب منها.. لقد أذلها حبها له ولكنه لم يخمد روحها المتقدة.. خلال أسابيع البؤس كانت تحضر وسيلة انتقام.. أرادت أن توقع بكزفيار العقاب الذي أوقعه بها.. لتظهر له أنها قادرة على انتزاع نفسها من بين ذراعيه، والابتعاد غير متأثرة أو مكترثة.. لكنه لم يعطها هذه الفرصة فكان أن اضطرت إلى مواجهة الحقيقة المرة: حقيقة عدم رغبته فيها.. في السنوات التي كانت تخرج فيها مع الرجال، لم تفكر قط في العذاب الذي سببته لهم بقلة اهتمامها.. ولكنها الآن وهي تعاني هذا النوع أنّ قلبها شفقة عليهم.

ظهرت القشة التي قسمت ظهر البعير يوم الأحد صباحاً خلال وجبة فطور متأخرة.. كانوا جلوساً في غرفة الطعام وشمس الشتاء المتعبة على المائدة الخشبية تنعكس على الكرواسان الذهبي وعلى مربى التوت الذي تصنعه سولين بيدها وعلى بخار القهوة المتصاعد، وكانت تنصب أيضاً على كوانتين فتحوّل لون شعرها إلى خوذة آبنوسية سوداء براقة، وترمي هالة حول خطوط جانب وجهها الرقيقة.

نظرت سولين إليها بإعجاب: لو كان لي جمالك كوني لعملت موديلاً لرسام.

ونظرت إلى زافي الذي يرتشف القهوة فارتدّ بكسل في مقعده.

- ألا تظنها جميلة زافي؟

لم تستطع كوانتين تصديق ما تسمع:

- سولين! يجب ألا..

تجاهلها زافي، ورنا إليها بطرف عينه:

- هذا أول ما فكرت فيه عندما التقيتها.. فكرت أنها ستكون موديلاً رائعاً.

ابتسمت سولين: تمتلك الطول المناسب، والقد الرشيق.. بإمكانها أن تتصدر غلاف مجلة فوغ.

- بل عليها الجلوس أمام رسام ليخلد لها وجهها.

لو كانت النظرات تقتل لدفنت تعابير وجه كوانتين كزفيار تحت التراب.. ولكن سولين لم تلحظ شيئاً إذ قالت بمرح:

- لم أفكر في هذا.. هل فكرت فيه موري؟

ابتسم مورغان لكوانتين:

- أختي؟ تلك التي لها ركبتان مقوستان والتي تضع شريطتين على شعرها؟ إنسي الأمر.

وقفت كوانتين فجأة.. وقالت وهي تحدق بغضب إلى وجوههم المبتسمة:

- إن لم يكن لديكم مانع.. سأذهب لأنام بضع دقائق.. يبدو أنني مصابة بصداع.

ارتقت السلم وهي تسمع ضحكة كزفيار فشدت قبضتيها إلى جنبيها.. ليس عليها إلا الصبر ساعتين أخريين إذ سرعان ما تنتهي عطلة الأسبوع، وتعود إلى شقتها آمنة من وخزات كزفيار، ومكائد سولين، ومزاح موري.. استلقت على سريرها لتتخذ عدة قرارات فكان الأول أن تنسى وجود كزفيار ريثينك.. وكان الثاني أن تخرج في مواعيد مع الرجال مجدداً.. فقد رفضت عدة دعوات منذ عادت من الدنمارك، ولقد سئمت من إضاعة حياتها سدى.. أما الثالث فالعمل على تجديد ديكور شقتها.

كانت مشغولة بالتفكير في ألوان ترضي ذوقها للديكور الجديد، حين سمعت طرقاً على الباب وصوت سولين ينادي:

- كوني.. هل أستطيع الدخول؟

جلست كوانتين: «بالتأكيد».

جلست سولين على حافة السرير فبدت جميلة بروبها الأزرق الشاحب.

سألت بقلق: «هل أنت بخير؟»

قاومت كوانتين اندفاعاً لإخبارها الحقيقة المرّة. قالت: «سأعيش».

استندت سولين إلى خشب السرير وابتسمت برضى:

- أظن أن زائي مهتم بك. في عينيه تلك النظرة المحددة كلما كنت إلى جواره.

- على من يملك مخيلة كمخيلتك أن يكتب القصص الغرامية..

هزت سولين رأسها:

- إنه على الطريق ليعلق بالصنارة.

- تأملين كثيراً.. فأنا لا أظنه معجباً بي حتى.

عقدت سولين ذراعيها حول ركبتيها: «الحب أعمى».

جلست كوانتين مستقيمة:

- الحب؟ ألا ترين أنك تتمادين قليلاً؟

- لا أدري.. لقد التقطت شيئاً ما بينكما حالما التقيتما وكأنكما لستما غريبين.

تحركت كوانتين بعدم ارتياح، ولعنت دقة ملاحظة سولين.. فلأنفها قدرة على شم أعمق الأسرار المدفونة:

- حسناً.. نحن غريبان وسنبقى على الأرجح هكذا.

- أنت عنيدة كوني.. تقطعين أنفك نكاية بوجهك.

تنهدت كوانتين: علمتني تجربتي أن ما من رجل يبلغ السادسة والثلاثين ويبقى أعزب إلا إذا أمضى وقتاً طويلاً وهو يتجنب الالتزام وحسبما نعرف أن زائي ساندرز هو عابث مستمتع بالحياة، أصيل.. وحوله العديد من النساء اللاتي يتضورن من أجل الفتات الذي يرميه لهن.. وبما أنك تعرفينني جيداً فهذا يعني أني لا أريد أن أنضم إلى المجموعة.. أرفض الرجال اللعوبين.

ابتسمت سولين بمكر وقالت:

- يبدو لي.. أن السيدة تحتج كثيراً.

- أنت لا تفهمين شيئاً..

أرادت أن تكمل اعترافها لولا انحناء زوجة أخيها على نفسها وتمسكها بقائمة السرير.

- سولين.. ما الأمر؟

مرت لحظات قبل أن تستطيع سولين الإجابة:

- لا أدري . . شعرت بالألم.

أمسكت كوانتين بيدها: «أين؟».

ووضعت سولين يداً حامية حول بطنها:

- هنا . . و . .

انحنت مجدداً تشهق ألماً.

صاحت كوانتين: «سولين».

ارتفع رأس سولين التي كان العرق يبلل جبهتها وعيناها بركتين سوداوين من الألم.

همست: «إنه الطفل . . أوه . . كوني . . لا أريد أن أفقده!»

كان على كوانتين الاعتراف بأن زائي دعامة قوية. فقد ذهل موري من ألم سولين، وخاف على الطفل فلم يستطع القيام بسوى ضم سولين بين ذراعيه . . كان زائي هو الحاضر الفكر الذي استدعى الطبيب وقام بالترتيبات لدخولها المستشفى، واقترح على كوانتين أن توضب حقيبة صغيرة لسولين. وظل منتظراً في غرفة الانتظار حتى أدخلت سولين للفحص العام . . وكادت كوانتين تعانقه على الطريقة الهادئة المهذبة، التي تحاوب فيها مع هذر مورغان المتوتر . . فإن أجهضت في هذه المرة فستكون مأساة . . فما من حمل وصل إلى هذه المرحلة. تعرف كوانتين أن قلب سولين سيتحطم لو فقدت طفلها.

خرج الطبيب إليهم وعلى وجهه تعابير مطمئنة ولكن كل ما استطاع أن يقوله إن نتيجة ما تعانيه غير مؤكدة.

- إنها تعاني من تقلصات حمل تشبه «الطلق» ولكنها ضعيفة، ولست مقتنعاً إن كانت تدوم.

وقف موري: «والطفل»؟

قال الطبيب مبتسماً: إنه بخير . . يركل كالمجنون . . المخاض الكاذب لا يؤذي طفلاً سليماً . . بإمكانك البقاء مع زوجتك الآن لو شئت. لقد وضعناها في غرفة خاصة.

ذرعت كوانتين غرفة الانتظار ذهاباً وإياباً وهي تتساءل لماذا يجب أن تكون المستشفيات كئيبة هكذا . . فحتى المجلات قديمة فعمرها لا يقل عن خمسة أشهر . . لم تكن قادرة على الجلوس أو القراءة أو المغادرة للانتظار في مكان آخر.

ظلت تذرع الغرفة بشكل رتيب . . حول الطاولة، إلى النافذة، قرب لوحة برتقالية، ثم إلى الباب مجدداً . . كانت تذرع الغرفة للمرة الألف عندما أحست يد تلمس كتفها وبصوت هادىء يقول:

- ستحفرين خندقاً في الأرض.

ابتسمت كوانتين له متعبة:

- ليتنا نعرف ما يحدث.

- أنا واثق أنها ستكون على ما يرام.

نظرت إلى عينيه الزرقاوين المتعاطفتين، وسألت بلهفة:

- أتعتقد هذا حقاً؟

- أظنهم عرفوا حتى الآن ما إذا كانت ستسقط جنينها. تعالي واجلسي.

حوله هالة من الطمأنينة . . انضمت إليه على الأريكة واستندت إلى الخلف تغمض عينيها . . دس ذراعه حولها يجذبها إليه وبدل أن تجفل أو ترتبك، وضعت رأسها بإرهاق على كتفه، وتركت قوته تشعرها بالطمأنينة . . تنهدت وهي تشعر بالتوتر يخف من عضلاتها المشدودة . . واشتمت رائحة عطره، وأحست بارتفاع وانخفاض صدره . . كان في عناقهما حنان غير متوقع . . وللمرة الأولى منذ ساعات تحسّ بالأمان.

أطلت الممرضة المسؤولة عن الاستقبال إلى الغرفة:

- هل أجلب لكما القهوة؟

كانت الممرضة صغيرة الجسم شقراء، لكن أكثر ما لاحظته كوانتين فيها أنها لم تستطع رفع بصرها عن كزفيار . . فكان ذلك لها في مثل هذا الوقت أمراً مثيراً للتوتر.

هز كزفيار رأسه رافضاً عرض القهوة، مبتسماً للممرضة ابتسامة

فاتنة.. فقالت:

- حسناً.. لا تتردد إن كنت بحاجة إلى أي شيء.. أنا في الغرفة المجاورة.

عادت كوانتين إلى إغماض عينيها مرة أخرى، عازمة على إبعاد أفكارها عما هو مثير للاضطراب.. لكنها سرعان ما سمعت الطبيب يتحدث:

- بإمكانكما زيارة السيدة بورنيت.. لقد اجتازت مرحلة الخطر.

سألت كوانتين: «ألن تفقد الطفل؟»

- لا أعتقد هذا.. ولكنها ستبقى هنا تحت المراقبة. وبعد ذلك سأطلب أن تستريح في السرير حتى انتهاء الأشهر الأربعة القادمة.. لا نريد حدوث شيء كهذا مجدداً.

كانت سولين متعبة.. ولكنها بدت مستريحة، إذ راحت تلقي نكاتاً عن ثياب المستشفى المفتوحة، والخدمة السيئة.. موري، الذي بدا متعباً مثلها تقريباً رافق زاڤي وكوانتين التي قالت لأخيها:

- سأعود في الأسبوع المقبل لأساعد سولين على الاستقرار حين تعود إلى المنزل.

نظر إليها مورغان براحة:

- هل ستفعلين؟ كنت أنوي أن آخذ إجازة من المكتب.

تذكرت كوانتين ملاحظات سولين السابقة عن الوقت العصيب الذي يمر به بسبب ضغط العمل فقالت بحزم:

- لا.. لا داعي لتفعل هذا.. سأكون موجودة.

ضمها بمحبة، وصافح زاڤي الذي سيقلها إلى المدينة وقال له:

- لا أستطيع التعبير عن مقدار امتناني لكل مساعدتك.

ابتسم زاڤي، وقال بخفة: «أنا بالخدمة، أطلب ما تريد».

- حسناً.. في الواقع.. أريد أن أطلب طلباً واحداً منك.

انتفضت كوانتين بحذر.. ففي لهجة موري شيء ما.

قال زاڤي: «أوه».

غمز موري زاڤي: «اعتنِ بأختي رجاءً».

٩ ـ شمعة أطفأتها الريح

قاد كزڤيار سيارته القوية نحو المدينة وكان يسيطر عليها بكفاءة وسط الازدحام الشديد. كانت كوانتين فاقدة القدرة على النطق من الذل بسبب كلمات أخيها الأخيرة فراحت تنظر من النافذة إلى الخارج تراقب ضواحي «لونغ آيلند» تمر بها بسرعة وبدون وضوح.. ما هو إلا وقت قصير حتى دخلت السيارة بسرعة إلى نفق «ميرتاون»، حيث يتبدد الظلام فيه بسلسلة طويلة من الأضواء الصفراء.. تذكرت كوانتين افتتانها بالنفق في طفولتها.. في ذلك الوقت كان النفق بالنسبة لها غامضاً.. وكانت هي ومورغان يحلمان بوحوش خيالية، ومآسي سببتها السرعة المرتفعة.

عبست في الظلام، فقد تذكرت ما قاله مورغان لكزڤيار.. لماذا يظن الجميع أن بينه وبينها شيئاً ما؟ إنه لم يعبّر عن اهتمامه بها طوال عطلة الأسبوع.. كان مهذباً، فاتناً، وبارداً.. ضيفاً طيباً، ورفيقاً مثيراً للاهتمام.. ولكنه أوضح بما لا يقبل الشك أن كوانتين بالنسبة له قد تكون رجلاً آخر.

كانت هذه المعلومة مؤلمة كثيراً.. لقد جعلها الحب ضعيفة حساسة أمام كل ما يفعله زاڤي.. فهي تشعر به بكل عصب وعرق نابض منها.. وهذا ما جعلها شديدة التوق إلى اهتمامه.. لقد حلمت به كل ليلة في منزل مورغان، لكنه لم يقترب منها، فدفعت إذلالها وإحباطها بالجاه الغضب تعذيبه.. ألهذا قال موري إنها بحاجة لمن يعتني بها؟ لأن ريشها كان منفوشاً طوال نهاية الأسبوع؟ لأنها كانت شائكة أكثر من قنفذ؟ لأن

بؤسها كان واضحاً؟.. تنهدت عندما كانت السيارة تخرج من النفق إلى شوارع متهاتن المزدحمة، كان الظلام قد لف المدينة فأصبح متألقاً متغير الألوان، الأحمر البراق، الأزرق والأخضر، اللوحات المتحركة، بريق باطحات السحاب.. طالما أمنت أن متهاتن تكون في أحسن حالاتها ليلاً.

عندما وصلت السيارة أمام مبنى شقة كوانتين، تمتمت تشكره بتهذيب، وفتحت الباب، لكنه وضع يداً على معصمها، وقال:

ـ أنا مسافر إلى الدنمارك غداً.. ولقد حجزت مقعدين لنا.

ارتدت إليه بذهول:

ـ ماذا فعلت؟

رد بصوت صبور: أنت قادمة معي إلى الدنمارك.

لم تصدق ما تسمع:

ـ لا تكن سخيفاً.. ولماذا أذهب معك إلى الدنمارك؟

ـ لتكوني موديلاً أرسمه.

ـ قلت لك..

ـ أعرف ما قلته لي.. ولكنني أريد أن أرسمك.

صمتت كوانتين وكان رأسها يضجّ بأفكار معذبة.. إذن، لهذا السبب سعى إليها كزفيار مجدداً.. ليس ليتدخل في مقالتها، بل ليكتسب موافقتها على أن تكون موديلاً ليرسمها.. إن له عقلاً آحادي الاتجاه.. إنه رجل يسعى وراء ما يريد بعناد.

ـ لا أستطيع.

ـ ولمَ لا؟

قالت محتجة:

ـ لقد وعدت مورغان أن أعتني بسولين.

ـ ستعودين في الوقت المحدد لهذا.. لن أحتاجك أكثر من يومين.. هذا على الأقل في البداية.

سرعان ما كانت تفقد حججها.. الحقيقة أن فكرة قضاء المزيد من

الوقت معه فكرة مثيرة.. فهي لا تريد أن يختفي من حياتها مرة أخرى، حتى ولو عرفت أنه لا يرغب فيها أو يحبها، ففيها جزء يتوق ليكون معه.. وكانت تعرف أن عليها أن ترفض، وأن تفتح باب السيارة وتأخذ حقيبتها وترحل.. لكن الحب نسف كل دفاعاتها المعتادة.. تقاربهما في السيارة والإحساس بدفئه وبقبضته على معصمها تكاثفت وجعلت التفكير المنطقي مستحيلاً.

قال بصوت منخفض:

ـ تعالي معي لأرسمك.. وما إن أنتهي حتى أخبرك كل شيء عن ماضي.

نظرت كوانتين إليه متسعة العينين.. إن محاربة بؤسها العاطفي لأمر صعب.. أما أن تقاوم توسلاً لغريزتها المهنية لأمر أصعب.. عرفت أنه ما إن يظهر مقالها عنه حتى تتلقى سيلاً من الطلبات للمزيد.. غراي نورثوود يحتفظ بالمقال الآن لأنه يريد الاعتماد على عامل المفاجأة لرفع مبيعات المجلة.. لكن ما إن يخرج المقال إلى العلن حتى تكون معلوماتها المصدر الأساسي عن الرسام المراوغ.. وتعرف مدى أهمية الخبرة في حقل متخصص.. حتى الآن كتبت عن أي شيء وكل شيء.. مستخدمة براعتها المتعددة الألوان للنجاح.. لكن هناك مكافأة أضخم بكثير في تركيزها على موضوع واحد، عقود لكتب، برامج مقابلات، وشهرة.

قالت بحدة: «سأرغب في معرفة كل شيء».

ضحك كزفيار بمرارة:

ـ طبعاً.. أنت صحافية.

إذن كان يعرف ما تعني رشوته لها.. كانا من قبل يلعبان لعبة القط والفأر.. أما الآن فهو على استعداد لكشف أوراقه.. ستقف أمامه ليرسمها. فجأة تذكرت ما قاله لها يوماً.. ستكونين موديلاً لي في النهاية.. تحركت منزعجة في مقعدها، ونظرت من الزجاج الأمامي إلى الليل الأسود.. رغباتها تتصارع في تناقض واضح.. تعرف أن الاقتراب منه يعني الخطر لصحتها وسعادتها.. لكنها تعرف أيضاً أن تلك

المعلومات المثيرة للفضول عن حياته ستجعل أي مقال تكتبه عنه أكثر تركيزاً وموضوعية واكتمالاً.. والميزان يميل إلى كفته.. فكلما فكرت في الأمر كلما خفت قيمة تضحيتها.. وما هي بضع ساعات تقفها أمامه مقارنة بإعجاب رئيس التحرير والزملاء على المدى الطويل؟ لا شيء.. لا شيء أبداً.

قالت ببطء: «حسناً.. سأذهب».

رد بجرأة وهو يترك يدها: «عظيم.. سأتصل بك غداً».

ترجلت كوانتين من السيارة ووقفت تراقبه يبتعد.. وبدا حاجباها الدقيقان متلاصقين في عبوس وحيرة.. كان الضوء في السيارة قاتماً بحيث لم تتبين تعابير وجهه ولكنها رأت في عينيه بريقاً غريباً.. نظرة ممعنة تلمح إلى ما هو أكثر من رضاء كفنان.

عندما وصلا كان منزل ريفينك مظلماً.. لم تكن نوافذه الخشبية الموصدة تعكس غير نور قمر باهت.. لقد حل الشتاء بقوته.. فالطريق الداخلي المرصوف حتى الباب الأمامي لم يكن سوى ممر صغير مشقوق في الثلج.. ارتعشت قليلاً وهي تقف أمام المنزل متذكرة المرة الأولى التي جاءت فيها إلى هنا.. كانت يومذاك خائفة، وها هي اليوم خائفة أيضاً.. مع أن مخاوفها هذه المرة أكثر واقعية.. يومذاك كانت خائفة أن يتحول كزفيار ريفينك إلى غول أما الخوف الآن فهو من الخطر الذي تقاتله داخل نفسها.

كان الداخل بارداً زمهريراً.. إيفا غير موجودة لأنها سافرت في إجازتها الشتوية إلى اليونان.. وإيملي وزوجها دراغو مسافران كذلك في زيارة أقاربهما في بلجيكا.. سرعان ما أضاء كزفيار الأنوار وشغّل التكييف المركزي.. في هذا الوقت كانت كوانتين تضع حقائبها أرضاً وتعلق معطفها في خزانة الردهة.

سألها كزفيار الواقف على بعد خطوة منها: «جائعة؟»

خلعت قبعتها فانسدلت خصلاتها القصيرة منها.. قالت:

- أتصور جوعاً.

كان الطعام على الطائرة أسوأ من المعتاد لذا لم تتناول هي او كزفيار شيئاً يذكر.

اقتادها إلى المطبخ:

- أتصور أن ايملي تركت لنا ما نأكله.. فهي لا تصدق أبداً أنني آكل ما فيه الكفاية.. وتعتقد أن العازبين يفتقرون عادة إلى الغذاء.

فتحت كوانتين البراد فوجدت أن رفوفه محشوة.. وقالت مازحة:

- سنتجو من الهلاك جوعاً بكل تأكيد.

- أيمكنك أن تطبخي؟

ارتدت لتواجهه: «وأنت؟»

ضحك:

- سلام.. سنتقاسم مهمات المنزل.

وضعت كوانتين حقيبتها في غرفتها، وخلعت ملابس السفر المجعدة وارتدت جينزاً وبلوزة مفتوحة الياقة وعادت إلى المطبخ فوجدت كزفيار يعد «الأومليت» البيض المخفوق المقلي، ويضع ميدعة ايملي فوق جينز وقميص أبيض.. كان رائق المزاج مرحاً، يكسر البيض ويخفقه وهو يصفر ثم رأته يسكبه في المقلاة بخبرة لا تُنكر..

قالت له: أشك في أن تكون مفتقراً إلى الغذاء.

- تحب النساء أسطورة أن الرجال لا يجيدون العناية بأنفسهم.

جلست على أحد مقاعد المطبخ:

- ولكن بعض الرجال لا يجيدون فعلاً العناية بأنفسهم.

قال بحدة: وبعض النساء يفضلن أن لا يكبر رجالهن أبداً.

- وهل قابلت العديدات منهن؟

ارتد إليها قال بشكل عفوي:

- إذن لقد بدأت!

لسعتها كلماته فسارعت تدافع عن نفسها:

- الصحافي صحافي دائماً.. لقد ولدت ودفتر الملاحظات في يدي، والقلم في الأخرى.

قال بمرارة: «لن أعجب لهذا».

وارتدّ مجدداً إلى الطبّاخ.

نظرت برهبة إلى ظهره وكتفيه العريضتين.. أملت أن يكون نقاشهما عن ماضيه سهلاً ولكن يبدو أن آمالها كانت عبثاً. لكنها صممت على المضي لأنه سيحصل على ما يريد في أي حال.. لقد قال لها إن الرسم سيبدأ فجراً لأن نور ذلك الوقت هو الأفضل.

سألت مكررة: «وهل قابلت نساء كثيرات هكذا؟»

تصلب ظهره، ولكنه لم يظهر أي غضب وأجاب بصراحة:

ـ عرفت نساء منهن.

إذن.. ها هو يصرح علناً ويخبرها بعلاقاته السابقة.. أرادت كوانتين أن تعرف، لكن المعرفة دواء مرّ صعب ازدراده.. فجأة اكتشفت أن لا رغبة لديها في خوض ماضيه.. أو الآن على الأقل.. ولم تلاحق الموضوع، بل ارتدت عوضاً عن ذلك إلى مواضيع أخرى.. كالطبخ ورحلات الطيران.

تناولا الطعام بانسجام، واقترح كزفيار الراحة باكراً لأنهما ما زالا يتصرفان على أساس توقيت نيويورك.. خلعت كوانتين ثيابها في غرفتها وارتدت ثوب نومها.. نامت نوماً متقطعاً، تحلم أحلاماً حيّة بائسة، رأت فيها أنها تهرب في الشوارع بحثاً عن عبثاً فيما يدا رجل غريب تمتدان نحوها. استيقظت في الصباح الباكر قبل أن تشرق الشمس، واستلقت في الفراش طويلاً، تنتظر أن يقرع كزفيار الباب عليها.

في المرسم كان رصيناً، دقيقاً، يحرك أطرافها إلى الوضع الملائم، بعدم اكتراث واضح.. استلقت على المنصة المرتفعة المغطاة بالوسائد الخضراء الحريرية في وضع كلاسيكي على جنبها وشرشف أبيض تحتها.. كانت الشمس تشع من شق في السقف حوّل بشرتها الحريرية إلى لون ذهبي شاحب.. ولم تشعر بالراحة فالجلوس فترة طويلة في وضعية واحدة لأمر مرهق.

سأل: «أما زلت غير راغبة أن تُرسمي؟»

ردت بحدة: «ارسم فقط».

ضحك:

ـ ابتسمي حبيبتي.. لن يستمر عذابك إلى الأبد.

ـ أنا لا أمزح.

ـ عليك النظر إلى هذا على أنه تجربة.. فكري كم مقالة ستبيعين عندما تعلنين أنك كنت موديلاً للرسام الذي تكتبين عنه.

لم تستطع سوى أن تبتسم: «مضحك جداً!».

التقط قلماً وبدأ يخطط:

ـ أنت جادة كثيراً كوانتين.

هذا ما يقوله الجميع لها.. ستان وموري وسولين، حتى غراي نورثوود يراها صارمة كثيراً.. ولم ترد كوانتين، بل أصغت إلى الموسيقى الصادحة من الستيريو.. ليس بيدها حيلة في ما يتعلق بشخصيتها، فطالما بدت لها الحياة صعبة وكأنها سباق لا يهم فيه سوى البقاء.

سمعته يردف: «في المستشفى مثلاً..».

هبّت لتدافع عن نفسها:

ـ كنت قلقة على سولين لأنها عانت من مشاكل كثيرة في الحمل.

هز رأسه إيجاباً: صحيح.. ولكنني شعرت شعوراً آخر عنك.

ـ أوه؟

ـ كانت ردة فعلك مضاعفة، وكأنه طفلك.

نظرت إلى الأرض تاركة أهدابها السوداء تخفي الصدمة في عينيها. كيف تكهن كزفيار بهذا؟ لقد أخفت مشاعرها جيداً حتى كادت تقنع نفسها أن ما تشعره نحو سولين حب أخوي ولهفة. لكن، تحت كل هذا، كان رعبها على نفسها.. إنها في مثل عمر سولين والصلة بينهما أقوى من رابطة الدم، وتحس بألم سولين ومحنتها وكأنها محنتها.. ولو فقدت سولين الطفل لشعرت كوانتين بأنها هي التي أجهضت.. لقد أحبت الأطفال حتى قبل أن تفكر بزوج، ولم تشك قط في قدرتها على أن تكون أماً.. لذا ذهبت عاطفتها إلى أعمق من العطف، وتجذرت في

خوفها من الفشل.

ضمت معزفتها هذه إلى قلبها، وأدارت وجهاً جامداً إلى كزفيار:

ـ لم أعرف أنك أصبحت عالماً نفسياً.

لم يستجب كزفيار للطعم، وقال بهدوء:

ـ لم يحصل هذا.. فأنا أرسم ما أرى.

لم يتكلما كثيراً بعد هذا ولكن كوانتين أخذت عدة استراحات مدت فيها عضلاتها المشدودة، ثم حضرت الغداء، أما كزفيار فأكمل العمل في اللوحة طوال فترة بعد الظهر، ولم يسترح أكثر من ربع ساعة للعشاء.. وهو لن يحتاج إلى كوانتين حتى الصباح التالي، فكان أن جلست مع قصة غامضة، تحاول دفن نفسها في أحداثها.. لكنها لم تنجح. فأطفأت النور في غرفتها واستلقت في السرير، تحدق إلى السقف متسائلة عن نفاذ بصيرة كزفيار الخارقة.. لم يسبق أن رأى أحد ما في فكرها وقلبها بمثل هذه العين النافذة.. أغمضت عينيها ووضعت الأغطية تحت ذقنها متمنية مرور الأيام القليلة القادمة بسرعة.. ولعل أكثر الأماني إلحاحاً في نفسها هو الانتهاء من رسمها والبدء بكتابة مقابلتها الصحفية التالية معه فتعود بهذا إلى عالمها الخاص الآمن.

كان اليوم التالي مماثلاً لليوم السابق.. فقد عمل كزفيار بتركيز، أما كوانتين فكانت تصغي إلى الموسيقى.. ولم يلمسها ثانية، فقد استلقت بشكل آلي في وضعية مناسبة ولم يتكلما إلا قليلاً.. شعرت وكأنها دمية فوق منصة. كان الفنان فيه ينظر إليها كرأس وأطراف ولون وأبعاد.. والرجل فيه لم يتعرف إلى المرأة.

في اليوم الثالث، وضع فرشاته ومرر أصابعه في شعره الذهبي ونظر إليها متفرساً:

ـ أنت لست مسترخية.

نظرت إليه بدهشة:

ـ لست مسترخية؟

تحرك وتوجه إليها ليقف أمامها:

ـ أنت تقاومينني.. أشعر بهذا.

أحست كوانتين بارتفاع غضبها.. وقالت ببرود:

ـ أنا هنا.. وأخشى أن يكون هذا أفضل ما أستطيع أن أفعله لك.

ـ لست هنا أبداً لأنك كصدفة مغلقة.. لا أستطيع الإحساس بالمرأة فيك.

أرادت أن تصرخ في وجهه: غلطة من هذه! لكنها رفعت ذقنها، وقالت:

ـ أنا أنفذ ما يختص بي من الصفقة.. وإن لم تكتفِ..

ـ لا لم أكتفِ، لأنني لا أستطيع أن أرسم تمثالاً.

وقفت ثم قالت ببرود:

ـ لست تمثالاً.. فإن لم يكن لديك الإحساس لتلاحظ.. فلا أستطيع أن أفعل لك شيئاً.

ـ ليتك لست خائفة هكذا...

ضاقت عيناها بين أهدابها السوداء، وسألت:

ـ خائفة من ماذا؟

ـ منذ عرفتك وأنت مختبئة وراء واجهة، جدار زجاجي بارد، أحطتِ به مشاعرك لتحمي ما تحاولين إخفاءه.

صاحت: «أنا لا أخفي شيئاً».

سأل ساخراً: «حقاً؟»

ـ لا.. حياتي كتاب مفتوح.. ولا أسرار لديّ.

ارتدّت على عقبيها لتخرج من المرسم.. فقال بصوت شرير ناعم:

ـ ألهذا السبب لا تتكلمين أبداً عن والدك؟

توقفت كوانتين في أرضها ثم ارتدت ببطء تواجهه وعيناها مذهورتان، فسألت همساً:

ـ من أخبرك عن أبي؟

ـ سولين.

نظرت كوانتين إلى الأرض، تضم يديها حول نفسها.. أحست

بالبرد يجتاحها، وبدأت أسنانها تصطك.. فجأة وقف أمامها، فرفعت أصابعه الطويلة رأسها لتنظر إليه.

ـ هل هذا صحيح؟

ـ ماذا؟

ـ أن والدك هجر عائلته؟

قالت ببطء: «صحيح».

ـ لماذا لم يؤثر هذا في مورغان كما أثر فيك؟

قالت بمحاولة يائسة لإبعاده عن الحقيقة:

ـ لكنها أثرت به.. جعلته يائساً للحصول على عائلة.. يريد أن يكون أباً حقيقياً.. أن يحب أولاده كما يجب.

ـ حدث لك ما لم يحدث لمورغان.. هل هذا صحيح؟

راحت كوانتين ترتجف بشدة، وأرادت الهرب، لكنه ظلّ ممسكاً بها.. فقالت كاذبة: «لم يحدث لي شيء».

ـ الحقيقة كوانتين.. الحقيقة!

ـ قلتها لك..

ـ ماذا فعل بك كوانتين؟

لم تعد كوانتين ترى وجه كزفيار بل أعمتها الذكريات، ذكريات أقفلت عليها الباب وكبتتها ودفنتها لأنها لم تتمكن قط من التفكير فيها بدون الشعور بألم.. وتهاوت سيطرتها الهشة على نفسها وتبددت.. انتزعت ذقنها منه وارتدت حتى الجدار تقول بصوت أجش منخفض:

ـ دعني وشأني!

خطا إليها خطوة: كوانتين..

صرخت:

ـ لا تلمسني.. لا تلمسني!

تسمّر في أرضه متوتراً، ثم قال مهدئاً روعها:

ـ لن ألمسك.

ارتعشت كوانتين التي تعرّت روحها أمام رياح الحقيقة الباردة..

لقد ظلت لسنوات تعيّر الماضي، تعيد تشكيله حسب تصورها الخاص، ليتناسب بشكل ألطف، لتستطيع رفع رأسها عالياً، والتفكير في نفسها على أنها شخص طبيعي، عاشت في عائلة مستقرة.. كانت تعترف أن والدها هجرهم، ولو ضغط أحد عليها لاعترفت بأنه كان يعاشر غير أمها.. لكنها لم تكشف قط الحقيقة أمام أحد.. وحدها تعرف ذلك وهناك أيضاً ستان وليزا، وبالتأكيد والدها الذي اختار بعد ظهر ذلك اليوم ليترك المنزل، ولم تعد تراه منذ ثماني عشرة سنة. لقد نجحت بطمس الماضي، ونسج سياج حول غضبها وألمها وجرحها.. وكرهت كزفيار لأنه مزّق ذلك السياج وتركها عارية أمام حدّ الذكريات المؤلمة.

قال كزفيار بحثها: «تكلمي عن الأمر.. إن لم تخرجي الحقيقة من نفسك، لظلت تسيطر على حياتك».

ضمت جسمها وراحت تنظر إلى أبعد من كزفيار، إلى اللوحات المعلقة على الجدار البعيد.. وعندما تكلمت كانت توجه كلامها إلى الوجوه والعيون الصادقة التي فيها.

ـ كان.. يضرب أمي من دون رحمة.. كل يوم تقريباً.. هي لا تتحدث عن هذا الآن وما تحدثت يوماً عن الأمر.. والواقع أنه لم يكن لدي ولدى مورغان فكرة عما يجري ونحن في المدرسة.. وعندما كنا نلاحظ كدماتها، كانت تقول إنها وقعت أو صدمت كرسياً. كنا نصدقها لأننا كنا صغاراً لا نعرف ما تعني العين السوداء، أو المعصم الملتوي.

صمتت.. ولم يتحرك كزفيار أو يتكلم، كانت عيناه مركزتين على وجهها.

ـ عدت إلى المنزل من المدرسة يوماً فوجدته يضربها بحزامه الجلدي.. يضربها وكأنها كلب.. كانت جاثية على أرض المطبخ، ورأسها مدفون بين ذراعيها تحاول حماية نفسها.. لم تكن تبكي أو تصرخ أو حتى تحتج، بل كانت تتقبل ضربه بصمت.. وكأنها.. كأنها تستحق أن تُضرب.. فصرخت به أن يتوقف.. ثم..

سحبت نفساً عميقاً متقطعاً:

- ارتد إلي. كنت في التاسعة من عمري، ولم أكن كبيرة الحجم. لذا عندما ضربني، طرت في المطبخ واصطدم رأسي بالطباخ.. ما إن ارتطمت بالأرض حتى فقدت الوعي.. فاعتقد أنه قتلني، فهرب من المنزل ولم نره مرة أخرى.

ران صمت رهيب بينهما، وأخذت الدموع تنهمر على وجهها.. ثم قالت:

- الجزء السيء من القصة أنني لم أكرهه.. كنت أعرف أنه لم يكن طيباً لطيفاً كسائر الآباء.. كنت أعرف أنه يعاشر غير أمي، وكنت أعرف أنه وأمي يتقاتلان بشراسة.. لكنني كنت أحبه.

التوى فمها ألماً:

- أترى.. الأولاد بحاجة ماسة إلى حب والديهما. لا يتخلون عن هذا الحب بسهولة.. قضيت أشهراً طويلة وأنا أتضرع إلى الله أن يعود لتتمكن من حل مشاكلنا.. لم أفهم شيئاً يومذاك، ظننت أن لكل مشكلة حلاً.. ولم أكن أسمع بعدم التكافؤ.. كل ما عرفته أنني أحبه. هكذا هم الأولاد.. عنيدون إلى أبعد الحدود.. وهذا أمر سخيف.. أليس كذلك؟

أغمضت عينيها لتبعد شبح الذكرى.. كان ظهرها إلى الجدار، وذراعاها مضمومتان بشدة على صدرها.. سمعت صدى صوتها في أذنيها.. تكراراً لذبذبات الحقيقة التي لم تقل من قبل لأحد. لم تعد تبكي.. وكان لديها شعور بالراحة غريب، وكأن ثقلاً ارتفع عن كاهلها.. كان كزفير محفاً حين قال إن السّر كان مسيطراً على حياتها.. وجعلها باردة تخاف الألم والهجر.

فجأة أصبحت بين ذراعي كزفير الذي داعبت يده خدها حيث لطخته الدموع ثم دفن أصابع يده في شعرها الأسود، ليقول هامساً: حبيبتي.

حبيبتي.. أصابت الكلمة كوانتين بالدوار، وكأنها دارت ودارت في دوامة.. الصور البشعة والذكريات دارت وكأنها أحلام لا أساس لها،

ولكنها نسبت كل الذكريات وعاشت في لحظة عناقه.. ارتفع وجهها إليه، وانحنى رأسه الأشقر إليها بلهفة.. كان عناقاً مليئاً بالحب والاهتمام وبين جنباته كل ما لا تقوله الكلمات.

وقفا للحظات متعانقين. كوانتين مستندة إليه، تستمتع بدفئه وقوته، دفئه أرسل موجات ارتعاش وصلت إلى شرايينها.. وسمعته يتمتم:

- كوانتين.. حبيبتي المسكينة!

المسكينة! فتحت عينيها فجأة.. وفجأة جعلتها حركة يديه تستعيد وعيها.. أحست بالدفء فيها يتلاشى وبرد شديد، كانت كشمعة انطفأ نورها أمام ريح باردة.. أدركت أنه يعانقها بدافع الشفقة.. هو يشعر بالأسى عليها. الأسى على طفولتها التعسة والأب المتوحش.. لم يكن عناقه سوى محاولة لجعلها تشعر بأنها أفضل حالاً، مرهم شاف لجروحها المفتوحة. لم يكن فيه ذرة حب، أو رغبة، بل إثارة تظهر كلما عانق امرأة.. دفعته عنها بغضب.. فإن كانت تكره شيئاً في الدنيا فهو الشفقة.

صاحت: «أبعد يديك عني!»

كانت عيناه الزرقاوان سوداوين براقتين.. وأنفاسه متقطعة:

- ما الأمر..؟

بذلت جهداً كبيراً لتمسح أي تعبير عن وجهها فحجبت نفسها بواجهة من البرود.. وقالت بصراحة:

- أكره أن تلمسني.

لطخ الاحمرار خديه، وسأل ساخراً:

- حقاً؟ لكن جسدك أرسل رسائل مختلفة.

هزت كتفيها: «مجرد إثارة».

أمسكها بكتفيها فراحت أصابعه تؤلم ذراعيها:

- أية لعبة تلعبين؟

وسعت عيناها الرماديتان ببراءة: لعبة؟

ـ تتجاورين في لحظة، ثم تنقلين إلى لوح ثلج في التالية.

ـ ما هذه بلعبة.. للحظات نسيت من يعانقني وعندما تذكرت..

وتركت الكلمات توصل مضامينها بمفردها.. فضاقت عينا كزڤيار غضباً، وتركها فجأة مما جعلها تترنح قليلاً. كانت بشرته قد ابيضت حول أنفه وفمه واشتدت عضلات فكه ووجهه.. نظر إليها لحظات وقال بصوت منخفض شرير:

ـ لا أصدقك.. لا أصدق كلمة مما تقولين.

ثم خرج صافقاً باب المرسم خلفه بشدة.. كان حذاؤه الثقيل يصدر ضربات مرتفعة على الدرج المكسو بالخشب.

* * *

١٠ ـ يا قلبي لا تحزن!

لم تجد في الانتظام إلا راحة باردة.. وقفت قرب النافذة في برج المرسم تراقب سيارة كزڤيار تبتعد بسرعة. لقد أرادت أن تعرضه للمعاملة التي عاملها بها حين ضبطها في غرفته تبحث في ملفات عائلية.. أرادت أن تريه ما معنى أن يُصدّ الإنسان في لحظات كتلك.. كان النجاح أكثر فراغاً مما تصورته يوماً.. فبدل الإحساس بالانتصار شعرت بالبؤس، وكأن ثمن نصرها باهظاً جداً بحيث ترك المنتصر مدمراً أكثر من المغلوب.

أحست أنها مستنزفة القوى ومرهقة، فدفعت خصلات شعرها عن جبينها دليل القلق. ظنت أن نبش الماضي سيكون سهلاً، ولكنه أثر في نفسيتها.. وفيما كانت تنظر إلى الغابة المحيطة بالمنزل أدركت أن عليها مغادرة المكان، فهي تحبه ومع ذلك أذلته ومن الأفضل لهما أن تعود إلى نيويورك.

بدأت تسير إلى جهة المرسم الأخرى فنظرت بالصدفة إلى اللوحة التي كان كزڤيار يعمل عليها.. لقد رفض أن تنظر إلى اللوحة قائلاً إنه يرفض أن يرى أحد عمله حتى ينجزه. الآن، وهي تنظر إلى نفسها، أحست بالحرارة تندفع إلى شرايينها وكأنها شعلة نارية. هل هي حقاً جميلة هكذا؟ لقد اعتقدت أن وضعيتها أمامه تلمح إلى امرأة جميلة باردة وليس إلى محظية. هكذا رسمها كزڤيار، كدمية لرجل ثري، الابتسامة تفرّج شفتيها، وتطلق دعوة لا ريب فيها.

أذهلها ما أنجزه.. فصورتها كاملة تقريباً.. كانت دمغة ريڤينك في

اللوحة قوية: استخدام مكثف وواضح للضوء والظل. بدت وكأنها مستلقية في غرفة لا يضيئها إلا شعاع شمس ينصب فوقها وكأنه غلالة ذهبية شفافة، تنير لون عينيها الرمادي وخطوط جانب وجهها الدقيق، وخطوط بشرتها الناعمة.. ولم تكن كما قال: امرأة داخل صدفة.. تساءلت ما الذي دفعه ليتهمها بهذا الاتهام.

تركت كوانتين المرسم وأقفلت الباب وراءها وكأنما إلى الأبد.. وتوجهت إلى غرفتها حيث ارتدت ملابس السفر ووضبت حقيبتها.. ثم استأجرت سيارة أجرة، وجلست في البهو تنتظر وصولها. كانت عيناها مغمضتين من فرط التعب والتوتر.. لم تعرف متى يعود كزفيار، لكن بناء على الطريقة التي خرج فيها افترضت أنه لن يعود باكراً أبداً.

نامت كوانتين خلال رحلة التاكسي، وأمضت ساعات فراغ في المطار.. كانت محظوظة لأنها وجدت مكاناً في الرحلة.. هذا ما قاله لها أحد ممثلي شركة الطيران.. ولم يدهشها أن ترى الطائرة ممتلئة.. بسبب هذا الوضع، كان المقعد الوحيد المتوفر في قسم التدخين بين المقاعد.. أما زميلاها في المقعد فكانا شابين عاشقين يمسكان أيدي بعضهما بعضاً وينظر كل واحد منهما نظرة عميقة إلى عيني الآخر.

أغمضت كوانتين عينيها، ولكن لم يهدىء شيء من روعها أو يصمّ الأصوات في رأسها.. عرفت أنها لم تقنعه بعدم اكتراثها، ولكن الأمر لا يهم الآن. كل ما كان بينهما انتهى أمره.. لا يمكن لشخصين أن يتكلما وينصرفا كما تصرفا بدون تمزيق خيوط علاقتهما الهشة. كان كلامهما المتبادل مؤلماً وجارحاً وكان الضرر عميقاً، واسعاً، لا يمكن رتقه.. تنهدت بتعاسة، وتحركت في مقعدها تبحث عن الراحة في مكانها الضيق.. وفكرت أن النوم سيكون السلوان الرحيم.

سألها صوت أجش عميق: «قهوة؟»

فتحت عينيها فرأت مضيفة شقراء واقفة قربها.. كانت الصدمة مشتركة لكليتهما.. اتسعت عينا ڤاليسا الزرقاوان دهشة، أما كوانتين فشعرت برغبة في أن تتكور في مقعدها متأوهة.. بدا لها الهرب أفضل

طريقة للتخلص من كزفيار، ومن بين جميع النساء تلتقي بمن هو على علاقة معها.. وكشرت في نفسها ألماً، يا لسخرية القدر!

ابتسمت بوهن مستعدة لأي شيء بما فيه حجر مليء بالقهوة:

ـ أجل رجاء إنما بدون حليب.

صبت ڤاليسا بكفاءة السائل الساخن الذي يتصاعد منه البخار. قدّمت الفنجان لكوانتين مع علبة سكر وملعقة بلاستيكية، وسألت:

ـ هل كنت في زيارة كزفيار؟

هزت كوانتين رأسها.. فأردفت ڤاليسا:

ـ موضوع آخر للمجلة؟

ـ أجل.

قالت ڤاليسا باكتفاء: «سيصبح كزفياري مشهوراً».

كزفيارها.. ؟ يا لها من كلمة تملك تثير الاشمئزاز!

ابتسمت كوانتين وسألت: «هل رأيته مؤخراً؟»

ـ لقد اتصل بي بعد ظهر اليوم.

سحبت كوانتين أنفاسها بصعوبة: حقاً.

إنه لتصرف مثالي منه.. كيف يترك امرأة ليتصل بأخرى؟

ـ سنخرج معاً حين أعود إلى كوينهاغن.. وقد ذكر أيضاً سلسلة لوحات أخرى.

تلاشت ابتسامة كوانتين..

ـ ما ألطف هذا! ستكونين أنت كذلك مشهورة.

وضعت كيساً صغيراً من الفستق على صينية كوانتين:

ـ أرجو هذا.. فلتكن رحلتك موفقة.

ما إن عادت إلى منهاتن حتى أغرقت نفسها في دور الممرضة. أمضت أسبوعاً في لونغ ايلند، تعتني بسولين وتنظف لها المنزل، وتطبخ وجبات كبيرة تجلدها للاستخدام في وقت ما آخر. وتذمرت سولين وتأوهت وهي المعتادة على الحركة الدائمة، ولكنها لازمت فراشها شكرها مورغان كثيراً على صنيعها أما كوانتين فراحت تخفي بؤسها

بالعمل.. عندما جاء ستان وليزا من فلوريدا لتجدها، عادت إلى نيويورك لتكرر ما فعلته في منزل أخيها، في شقتها.. نظفت الشقة وطبخت كجني.. وكتبت رسائل إلى أصدقاء لم تراسلهم منذ أشهر وعملت في شقتها حتى أصبحت في حالة مشرقة وكادت ترى وجهها في سطح رفوف مطبخها.

في هذه المرة أيضاً وجدت أن الحركة مصدر كبير للراحة وهي بجودة الأقراص المنومة.. فما إن تضع رأسها على وسادتها حتى كانت تغرق في نوم عميق لا أحلام فيه. حاولت ألا تلاحظ أن نومها لم يكن منعشاً أكثر من الأرق. وانطلقت بما تنفذه بطاقة كبيرة.. اتصل بها رئيس التحرير بأفكار جديدة لقصص جديدة لم تجد في أي منها ما هو ملهم.. ولكنها تصرفت وكأنها استجابت لأدعيتها.. فما همها إن لم تكن تهتم كيف يزرع سكان الشقق نباتاتهم أو ما هي آخر الصرعات في أحزمة النساء؟ إنه عمل، وكوانتين تؤمن بمثاليات العمل.

في نهاية الأسبوع التالية جاء ستان وليزا لزيارتها عشاء.. فتحشمت كوانتين عشاء كبيراً في تحضير مأدبة جميلة وطعام لذيذ.. وضعت الشمعدانات التي اشترتها من الدانمارك على طاولة، ووضعت عليها غطاء أبيض وآنية صينية فاخرة بيضاء ثم قدمت الكركند المسلوق والأسكالوب مع البطاطا المهروسة.. أما الحلوى فطهت قالباً عليه طبقة من الشوكولا والكريما البيضاء.. وكان هذا القالب المفضل لدى ستان.

قال وهو يمسح فمه بالمنديل:

ـ أنت طاهية بارعة كوني.. أحسد الرجل الذي سيحصل عليك.

ردت بحزم: «ما من رجل سيحصل عليّ!»

ابتسمت ليزا: «ما أروع أن تكوني مستقلة.. منذ مدة كانت السيدة دايزلي، تلك السيدة التي تسكن على مقربة منا وقلك كليين، كانت تقول إن الشابات في هذه الأيام محظوظات لأنهن يستطعن الاستقلال، ففي زمانها ما كان من المفروض بالفتاة أن تعمل..»

تبادلت كوانتين النظرات مع ستان. أما ليزا فتابعت ثرثرتها.. لم يسأل كوانتين عما حدث منذ آخرة مرة تحدثا فيها ولكنه فهم المعنى من وراء كلماتها.. وحديثها عن الاستقلالية وسيلة لتقول إنه لم يعد هناك شيء بينها وبين كزفيار.. لقد انتهى كل شيء.

قالت ليزا القادرة على الانتقال من موضوع إلى آخر بكل سهولة:

ـ... وهل لاحظت كم أصبح ثمن الهامبرغر؟ إنه يبلغ حد العار! هذا ما هو عليه! أذكر حينما..

ارتشفت كوانتين قهوتها وراقبت تعابير وجه أمها، ابتسامات تملأ خديها غمازات، ونقطيات عابسة صغيرة. وأدركت فجأة أن الصورة التي حملتها مدة سنوات عن ليزا لم تكن واقعية البتة.. لقد غضبت لسنوات على أمها بسبب اعتمادها على الآخرين وكسلها.. لكنها الآن تلاحظ شيئاً آخر.. حول فمها خطوط عميقة أخفتها ببراعة بالماكياج ولكنها موجودة وهناك ظلال حول عينيها الزرقاوين الشبيهتين بعيني طفل.

لقد أجبرها كزفيار على فهم الطرق التي ناضلت فيها لإخفاء الماضي.. وها هي تتساءل للمرة الأولى كيف استطاعت ليزا معايشة ماضيها.. لقد فجر والدها غضبه مرة واحدة عليها ولكن أمها كانت ضحيته دوماً.. تصاعدت الشفقة في نفسها فغصت.. فليزا أقوى وأقدر على التحمل مما تصورت يوماً، إذ لم يكن حبها للأمور التافهة وعدم مبالاتها بمشاكل الآخرين إلا مظهراً من مظاهر الدفاع ضد الألم.. لم تكن قادرة على استيعاب المزيد من المحن.. وستان، الذي فهم هذا، حماها من أي صعوبات قد تجرح فقاقيع سعادتها الهشة.

أردفت ليزا: «وهم لم يوجهوا الدعوة للعم لحضور الزفاف.. أليس كذلك ستان؟»

ابتسم ستان لها:

ـ لا حبيبتي لم يوجهوا له الدعوة.

ـ أتتصورين كوني؟ من يفعل شيئاً كهذا؟

مدت كوانتين يدها تربت يد أمها الصغيرة: «لا أتصورن ذلك».

ووقفت لتنظف المائدة قرن جرس الباب.

كان ستان قد أخرج سيكاراً، وسأل:

- أتتوقعين ضيوفاً حبيبتي؟

هزت رأسها عابسة:

- ربما إحدى الجارات تريد استقراض شيء.

ولكنها لم تكن جارة البتة بل كان كزفيار واقفاً بالباب. بدا وسيماً وطويلاً في بزة كحلية ومعطفاً جيلاً.. رأت على شعره بقايا الثلج الذائب.. جالت عيناه بفستانها الحريري الأخضر البسيط وبحذائها العالي الكعبين، فنظر إلى ما وراءها.. ظنها تستقبل رجلاً.

جف فم كوانتين ومضت بضع ثوانٍ قبل أن تتكلم: ماذا تريد؟

- يا له من استقبال حافل.

- لا أستقبلك.. بل أفضل عدم دخولك..

سأل ساخراً: «هل أقاطع.. شيئاً ما؟»

كادت تهمّ بقول «نعم» وبصفق الباب في وجهه حين تقدمت ليزا إليها سائلة برقة:

- من هذا كوني؟ صديقك؟ تفضل أدخل، لماذا لا تدخل؟

إذا كان هناك ما تحسن القيام به ليزا فهو حسن الضيافة.. لقد ترعرعت في الجنوب، ومع أن لكنتها اختفت منذ زمن، إلا أنها احتفظت بحب أهل الجنوب للضيافة.. وها هي تظهر كل ذرة من سحر ضيافتها لكزفيار.. لامست مرفقه بيدها واقتادته إلى غرفة الجلوس، ثم سمعتها تقول:

- زافي ساندرز، أليس كذلك؟ هذا غريب.. ذكر ابني موري أن لديه زبوناً باسم..

فأجابها كزفيار بصوته العميق، فأردفت ليزا:

- حقاً؟.. تصور هذا! يا للصدفة! وأنت تعرف ابنتي أيضاً. يجب أن تقابل زوجي.. ستان.. هذا زافي.

هرعت كوانتين إلى المطبخ وهناك استندت إلى رف المغسلة.. كان عقلها يلف ويدور تشوشاً.. لم تكن قد سمعت شيئاً عن كزفيار منذ عودتها إلى نيويورك وقد أكد لها صمته أن كل ما بينهما ولى وانتهى.. وهي تفضل هذا..

لكنه عاد إلى حياتها.. ووقفت تسند ظهرها في غضب مفاجيء..

كيف يجرؤ على اقتحام حياتها مجدداً مفترضاً أنها تريد رؤيته.. لولا تدخل ليزا لما سمحت له بالدخول. مدت يدها تتناول فنجاناً وصحناً لتضيفه بعض القهوة ولتتصرف بتهذيب ولباقة في حضور ذويها.. لكن حالما يخرجان ستشد كزفيار ربطبقك من أذنه إلى الخارج!

خرجت إلى غرفة الجلوس فتبين لها أن كزفيار وأبويها كالسمن على العسل.. ولم يدهشها هذا، فهي تعرف مدى سحر كزفيار.. ولكنها حمدت الله لأن في العائلة من اكتسب مناعة ضده.. وضعت القهوة أمامه، ونظرت إليه غاضبة، فاستجاب لها بأن رفع أحد حاجبيه.. ثم جلست قرب ستان على المقعد.

قالت ليزا بإصرار: «يجب أن تأكل قطعة من قالب الحلوى.. إنه لذيذ.. أليس كذلك ستان؟»

ارتدّ ستان في مقعده، وقال متفاخراً:

- تطهو ابنتي أفضل قالب حلوى بالشوكولا قد تذوقه يوماً.

تأوهت كوانتين في نفسها.. ليس ستان أيضاً! لماذا يشعر كل أفراد عائلتها بالرغبة في تزويجها حالما يرون كزفيار؟

قال كزفيار: «حسناً.. في هذه الحال..».

قال ستان آمراً: «قطعة حلوى الشوكولا للرجل».

رمت كوانتين كزفيار بنظرة غضب، وعادت إلى المطبخ حيث قطعت قطعة ضخمة من قالب الحلوى ووضعتها في طبق على أمل أن يختنق ويموت.. وكانت تحضر شوكة ومنديلاً حين دخل عليها ستان.

ابتسم يقول: «كنت أشعر بأن فتاك عائد».

- ليس فتاي.

ربت ذراعها: «كدت تخدعيني».

ـ ستان.. ليس الأمر كما تظن.. فما زلنا..

ـ إنها الكيمياء كوني.. الرجل غارق في حبك.. هذا مكتوب على وجهه.

ردت: «إذن هو مكتوب بالرموز لأنني لا أرى شيئاً.. الواقع أننا نكره بعضنا بعضاً..».

فرقع ستان بلسانه: «خصام أحبة».

شدت كوانتين عزيمتها: «لسنا أحبة!»

ـ حقاً؟

ـ حقاً.

ـ الآن حبيبتي.. لا تفهميني بطريقة خاطئة.. لكنني لا أعتقد أن هذا سيضرك.

اختنقت بريقها: «وهل تحاول القول...؟»

ـ أنا أقول إنك بحاجة إلى رجل وما رأيته من هذا الرجل يؤكد لي أنه أفضل من أي رجل قد تتعرفين إليه.

عندما كانت تقدم صحن الحلوى لكزفيار تساءلت عما إذا كان لديه فكرة عن النجاح الذي أحرزه مع أبويها وعائلتها. أصغى بتفهم ولطف إلى روايات ليزا الطويلة المفككة عن كيفية شرائها أثاث الشقة في فلوريدا.. وها هو الآن مع ستان يناقشه في أمر الاقتصاد الوطني وهو أحد أفضل مواضيع زوج أمها. رأت كوانتين أنهما أحبا كزفيار وأنهما يقومان بما في وسعهما لجعله يشعر بالراحة.. وكان هذا أمراً مثيراً للسخط والتوتر، ولكن كل ما تستطيع عمله هو الجلوس والابتسام بأدب، وكأن التيارات المتوترة في الغرفة غير موجودة.

غادرت ليزا وستان في وقت مبكر كثيراً، ولم يستطع كل ما قامت به كوانتين وما فعلته أن يبقيهما دقيقة أخرى. أصر زوج أمها على أنه وعد أحدهم بالعودة إلى لونغ ايلند في العاشرة، ولكنه غمز كوانتين غمزة كبيرة لم يلاحظها أحد وكأنه يقول: سيكون لك وحدك! استجابت له

كوانتين بابتسامة واهنة وشعرت بما أخبر به [illegible] كانوا يلقون إلى الأسود.. لحقت بهما إلى [illegible] لحظة الفراق. حينما أقفلت أبواب المصعد، انتظرت للعودة إلى الشقة ولمواجهة الموسيقى.

قال كزفيار بعفوية: «أبواك طيبان».

ـ شكراً لك.. والآن لماذا لا تغادر أنت بدورك؟

تجاهلها ومد ساقيه المديدتين، ووضع يديه خلف رأسه:

ـ أنت مختلفة كل الاختلاف عن أمك.

لا تظن أن في قوله إطراء، فسألت ببرود:

ـ أتظن هذا؟

التقطت الصينية التي تحوي السكر والحليب.. فقال:

ـ بدأت أفهم لماذا أنت قاسية هكذا.

وضعت الصينية من يدها، وسألت بارتباك: قاسية؟

ـ كالمخالب.

رفعت ذقنها: «هذا ما أنا بحاجة إليه.. من أجل عملي».

ـ ربما.. لكنني أعتقد أنك تبذلين الغالي والنفيس لئلا تكوني مثلها.

نظرت إليه بشدة وهي تجلس:

ـ وما العيب في هذا؟ إن الكثيرات من الفنيات يرغبن أن يكن عكس أمهاتهن.

مال إلى الأمام: لكنك تريدين أن تبرهني أنك أفضل.. أليس كذلك؟ لست امرأة تعلق في زواج كزواجها.. تكبت أمك مشاعرك لكن هذا ما ترفضين أن يكون في شخصيتك.

سألت ساخرة: مزيد من التحليل النفسي؟ ومن يقوم به هاو؟

مرت به الإهانة كما يمر الماء عن ظهر بطة.

ـ أنت امرأة معقدة كوانتين.. احتجت إلى فترة طويلة لأفهم سبب تصرفك في الدنمارك.

لم ترغب في التكلم عن الدنمارك، فوقفت مجدداً. التقطت الصينية وتوجهت نحو المطبخ تاركة بابه النصفي يتأرجح خلفها.. لو تجاهلت كزفيار وعاملته بصمت، لتركها تعيش حياتها بسلام.. كل ما قاله وفعله جعلها تضطرب وتعيد تأمل ذاتها على ضوء جديد.. لم يخطر ببالها يوماً أن تصرفاتها جميعها ردة فعل على شخصية ليزا المهزوزة.

فجأة أحست به وراءها.. لم تسمع وقع خطاه فارتدت لتواجهه وقالت بحرارة:

ـ لا عيب في أن أكون قاسية قوية.. هكذا أنا ولا أنوي الاعتذار.

استند إلى الباب وبداه في جيبيه:

ـ لاحاجة بك للاعتذار.. أنا أحاول فقط أن أشرح الطريقة التي أراك فيها.

فتحت باب غسالة الصحون، وبدأت تضع فيها أطباق العشاء.. وقالت بلهجة ذات مغزى:

ـ لا حاجة لأن تراني بأي شكل.. والأفضل أن ترحل.

ـ وهل الأمر أصعب من أن تعترفي به؟

ـ أعترف بماذا؟

ـ أنك كنت تقاومينني بأظافرك وأسنانك كما كنت تقاومين كل رجل قبلي، لأنك كنت خائفة أن يضربك الرجل الذي تحبين أو يتركك، أو الاثنين معاً.

أمسكت بطرف رفّ المغسلة، والغضب يرجفها:

ـ بأي حق تأتي إلى منزلي وتكلمني هكذا؟ تخوض في نفسي وكأنك جزّار، تمزق وتقطع في المشاعر التي أعتبرها غالية على نفسي؟ ألم تسمع قط بالمثل القائل أن على من يسكن بيتاً من زجاج ألا يراشق الناس بالحجارة؟ لماذا لا تتأمل ذاتك كزفيار؟

اشتدت عضلات فكه:

ـ عم تتحدثين؟

ـ أنت تستغل النساء، لا تظن أنني لم ألاحظ هذا.. كالمسكينة

الغبية ڤاليسا التي تعتقد أنك تحبها.

ـ أنت لا تعرفين شيئاً عن ڤاليسا.

ـ إنها عشيقتك.. أليس كذلك؟

ترك كزفيار الباب وتقدم إلى حيث هي واقفة، ونظر إلى الأسفل إليها والغضب يتطاير من عينيه:

ـ كانت عشيقتي وبإرادتها، ولكنها تعلم أنني لا أحبها.. قد لا تكون ڤاليسا على ثقافة واسعة، لكنها امرأة امرأة.

قالت بكبرياء:

ـ والمعنى أنني لست امرأة امرأة.

ـ أنت فارغة، أنت مجرد فوقعة لا شيء فيها.

كرهته.. كرهته! فصاحت:

ـ أنت لا تعرف شيئاً عني! أنت لا تعرف بما أشعر به في أعماقي.

قال ببرود: «بل أعرف.. عرفتك حين وقفت أمامي لأرسمك، التقطت حساسيتك وشفافيتك ولكنني لم ألتقط شيئاً آخر.. أنت امرأة مثيرة كوانتين، لكن هذا غير كاف.. لدى ڤاليسا على الأقل قلب».

دفع الغضب نبضاتها إلى التسارع، واسودت عيناها وقالت بصوت مخنوق:

ـ لدي قلب أنا أيضاً.

سأل بسخرية ورقة: حقاً؟

ـ أجل!

لم تصل الابتسامة إلى عينيه: «طالما تساءلت عن هذا».

صمت لحظة، ثم ارتد عنها:

ـ لا تزعجي نفسك في مرافقتي إلى الباب.. أستطيع أن أجد طريقي.

اشتدت قبضة كوانتين على رف المغسلة.. يحدث لها هذا مرة أخرى.. سيخرج كزفيار من حياتها وستكون المرة الأخيرة التي سترأه فيها.. أدركت فجأة ما كلفته عودته.. إنه رجل متكبر، وقد أذلته..

مع ذلك عاد ليراها بغية إصلاح الأمور ومناقشة ما حدث بينهما.

لقد عرض كزفّيار الصلح.. وكانت حمقاء لأنها لم تلاحظ إشارته في أنه يهتم بها.. فهل كانت مخطئة عندما ظنت أنه يكرهها؟ إن تركته يذهب الآن فهل ذلك يعني أنها سترتكب عملاً أحمق مجنوناً؟ لقد قالت لها سولين مرة إنها من النوع الذي يقطع أنفه نكاية بوجهه، فهل هذا ما تفعله الآن؟ هل تترك كزفّيار يذهب لأنها لا تستطيع التخلي عن كبريائها؟

جعلها الارتباك تترنح. سمعت صوت باب الشقة ينفتح، ثم ينغلق.. فعرفت أن كزفّيار.. رحل. لديها فرصة أخيرة لإيقافه قبل الوصول إلى المصعد.. خطت إلى الأمام ثم ابتلعت ريقها بصعوبة، كانت كبرياؤها عالقة في حلقها كالحجر. لو خرجت خلفه لاضطرت للاعتراف بالحقيقة.. فماذا سيفعل؟ سيضحك عليها؟ يذلها كما أذلته؟ سمعت هدير المصعد يرتفع من أسفل المبنى.. وقررت فجأة.

خرجت من المطبخ راكضة وفتحت باب الشقة.. كان كزفّيار في الممر، وجهه في الاتجاه المعاكس، كتفاه العريضتان داخل معطفه الصوفي ويداه في جيبي المعطف.. شعره الأشقر أشعث قليلاً.

قالت برقة: «كزفّيار».

استدار بسرعة: «ماذا تريدين؟»

دنت منه ولكن كان في كل خطوة عذاب.. إنها تخطو في اتجاه لم يسبق أن اتجهت إليه.. إنها على وشك الاعتراف بضعفها.. تساءلت عما إذا كان هذا الرجل البارد العينين على علم بأنها تحمل سعادتها على كفيها لتضعها بين يديه اللتين تقدران على سحقها بضربة واحدة مدمرة.

انفتح باب المصعد، لكن كزفّيار لم يدخله.. بل وقف ينظر إليها.. كان فستانها الحريري يهبس حول ساقيها، وكانت يداها مضمومتين في قبضتين صغيرتين على جنبيها.. ولكنها قوّمت ظهرها، ورفعت رأسها عالياً.. فلو ضحك منها ومزّق كبرياءها بسخريته سيبقى لها على الأقل وقارها.. بل سيكون هذا آخر ما تبقى لها.

جعلها التعبير على وجهه غير قادرة على الكلام.. ثم قالت متلعثمة:

ـ هلاّ عدت.. رجاء؟

ـ ولماذا أعود بحق الله؟

أجفلت: فلتتكلم.

ـ أشك في أن لدينا ما نتكلم عنه.

تمسكت بآخر بقايا شجاعتها، وقالت:

ـ أنا.. أردت أن أقول لك إن لي قلباً.

قال بريبة واضحة:

ـ أوه؟ هلا برهنت لي هذا؟

ـ أجل.. سأبرهن لك.

ارتفع حاجب ذهبي بسخرية:

ـ هنا.. في الخارج؟

نظرت بارتباك إلى الأبواب الممتدة في الرواق.. ما يجب أن تقوله له خاص وحميم بحيث يجب ألا يراه الجيران:

ـ لا.. ليس هنا.

عادا إلى الشقة، ومال كزفّيار وهو يستند إلى الباب:

ـ حسناً.. هل أخلع معطفي؟

ـ لا يهم.

ـ هكذا إذن.. ما هذه بدعوة.. من أجل علاقة.

ـ لا حاجة بك إلى قلب لتقيم علاقة.

تمتم: «هذا صحيح.. قد يتم ذلك بدون مشاعر ويبقى دمك بارداً».

أدهشها الحقد في كلماته، فسألت:

ـ وهل حدث هذا لك؟

طافت على وجهه مسحة ضعف، ثم سرعان ما امّحت:

ـ لست من يخضع لاستجواب هنا.. بل أنت.. أنت على وشك أن

تبرهني أنك من البشر، مثلنا جميعنا.

غضت كوانتين طرفها بحيث وصلت أهدابها خديها، وذلك لتخفي الخوف في عينيها وقالت:

- أنا إنسانة جداً.

- برهني هذا.

همست ووجهها باتجاه الأرض: «أحبك».

كان الصمت مطبقاً حتى خشيت أن تنظر إلى أبعد من قدميها.. وارتجفت رعباً منتظرة هزءه وضحكاته، أو تكشيرة كره، أو الرحيل وصفق الباب وراءه بأزدراء.

ثم أحاطت يداه بعنقها كأنهما رباط دافىء، وأجبرت أصابعه ذقنها على الارتفاع حتى تلاقت عيونهما.

سأل بصوت ملؤه الصدمة: «ماذا قلت؟»

ارتجفت شفتاها: «أنا.. أحبك».

رأت في وجهه أنه عرف كم لزمها من شجاعة لقول هذه الكلمات.. ورأت كذلك شيئاً جعل قلبها يتوقف فجأة ثم يعاود خفقانه بسرعة، وقوة، وفرح..

قال متنفساً الصعداء:

- يا إلهي كوانتين! ما اعتقدت قطُّ أنني سأسمعك تقولينها.

فجأة أصبحت بين ذراعيه.. يداه تعبثان بشعرها الأسود وكأنه عانى من الحرمان كثيراً بحيث لم يعد يكفيه سوى ملامستها..

دفنت رأسها في صدره:

- خفت أن تسخر مني.

تأوه، نصف ضاحك:

- لينك تعرفين فقط كم انتظرت! أحبك.. ولقد أحببتك منذ رأيتك.

أحست بالوهن: أتعني...؟

- أجل قارئة الطالع الغامضة.. أحببتها أيضاً حتى أنني أردت

الزواج بها.

عقدت ذراعيها بسرور حول عنقه، ودست أصابعها في شعره الذهبي وقالت مقطوعة الأنفاس:

- أوه.. كزفيار.. لقد أضعنا وقتاً طويلاً.

رد بفظاظة: كثيراً.. كثيراً.

* * *

بعد زمن ابتعد عنها وقال: «أشعر بالجوع، ألديك ما يؤكل؟».

رفعت رأسها لتتذكر ما لديها في المطبخ فإذا بها تتذكر أن ما عندها لا يسد جوع فأرة.

قالت: «هناك الحلوى بالشوكولا.. لم تنه القطعة».

- أنا جائع يا امرأة.

توقف هنيهة ثم أردف:

- سأذهب إلى المطعم الواقع عند الزاوية لأشتري ما نأكله.. ماذا تحبين؟

ابتسمت له:

- سجق، سلمون مدخن، جبنة كريم، حلوى التوت.. ولا تنسى اللبن الرائب.

- أنت غول لا يشبع.. حسناً استريحي ريثما أحضر الطعام.

ترك الغرفة فجلست على الأريكة وأغمضت عينيها مبتسمة.. لماذا شكت يوماً بحب كزفيار لها؟ عندما أعادت النظر إلى الماضي رأت جميع الإشارات والدلائل على أن غضبه وسخطه، كانا بمستوى غضبها وسخطها.. لقد تراكم سوء الفهم حتى فقدا القدرة على رؤية الحقيقة.. ومع أنها تعرف أن هناك مشاكل كثيرة يجب حلها، إلا أنها مقتنعة أن لا شيء سيقف في وجههما حتى كرهه للصحافيين.

قررت أن تبدل ملابسها قبل أن يأتي فارتدت فستاناً أزرق جميلاً بدت فيه فاتنة، ثم عادت إلى غرفة الجلوس وفتحت صحيفة اليوم التي لم تقرأها حتى الآن، وسرعان ما انغمست في قراءة مقالة عن تربية

بعد عشرين دقيقة رفعت بصرها عن الصحيفة وألقت نظرة إلى الساعة.. لقد مضى على خروج كزفيار نصف ساعة.. عبست ووجدت أنها شديدة الشكوك، وعادت لتفتح الصحيفة. في هذه المرة قرأت عشر دقائق، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى الساعة مجدداً. لا يمكن أن يستغرق شراؤه للطعام خمسة وأربعين دقيقة فالمطعم لا يبعد عن منزلها إلا منعطفاً واحداً.

سحبت نفساً عميقاً.. ووبخت نفسها لأنها تفكر كأي هستيرية في رواية قديمة الطراز. نهضت ثم فتحت باب شقتها وتوجهت إلى الردهة.

ـ مساء الخير.

إنه السيد بوكر الذي يسكن الشقة المجاورة لها، وهو عائد إلى منزله على ما يبدو وكالعادة يبدو شديد الأناقة.. فعلى الرغم من بلوغه الثمانين لا يخرج خارج بابه إلا مرتدياً بذلته وربطة عنقه.

سألته: ألم تلتق صدفة برجل مرّ بك بهذا الطول؟..

ومدت يدها في الهواء إلى ما يقارب طول كزفيار:

ـ أشقر، أزرق العينين يرتدي معطفاً؟

هزّ الرجل رأسه:

ـ لا.. هل هو صديقك؟

فجأة أدركت كوانتين كيف بدا سؤالها.. لم يكن السيد بوكر كبيراً بحيث لا يفهم ماذا يعني وقوف جارة عزباء أمام باب شقتها تسأل عن رجل. ردت مبتسمة: «أجل».

ـ وهل ستتزوجان؟

عرفت كوانتين مسبقاً أن السيد بوكر يعتقد أن عقوده الثمانين تعطيه الحق في طرح أسئلة محرجة وشخصية.

تنحنحت: «أجل».

ضرب عصاه في الأرض معبّراً عن رضاه بكلامه:

ـ عظيم..! لا أوافق على الطرق الحديثة.. بل أؤمن بالزواج..

وقد عشت زواجاً ناجحاً مدة أربعين عاماً.. حافظي عليه!

ابتسمت كوانتين له وعادت إلى شقتها.. لقد مضى على خروج كزفيار ساعة.. نظرت إلى غرفة الجلوس ثم وجدت أن الخطوة المنطقية هي التوجه إلى المطعم لترى إن كان ما يزال هناك.. أو على الأقل كان هناك. ارتدت معطفها بتفاؤل وتركت الشقة.. بعد عشر دقائق خرجت من المطعم والصدمة تغلف عينيها. لقد أكدت لها المرأة الواقفة وراء منصة البيع أن ما من أحد بأوصاف كزفيار ظهر في المطعم أبداً.

سحبت كوانتين نفساً عميقاً وبدأت السير.. قطعت المنعطف الآخر وابتعدت أكثر، عيناها تنظران إلى كل طيف مقترب.. راح الخوف وعدم التصديق يسيطران عليها فأحنت كتفيها ونظرت إلى قدميها وهي تسير، تكاد لا تستطيع مواجهة ما يعنيه اختفاء كزفيار.

هل تخلى عنها؟ هل خرج وهو يعرف أنه لن يعود؟ دفعت الفكرة بالغصة إلى حلقها. لقد قال إنه يحبها.. لكن ربما.. ربما كانت كذبة.. الخدعة الأخيرة. الكلمات التي يعرف أنها ستمكنه من أن يكون المنتقم الأخير.

لا! لا يمكن أن تكون هذه هي الحقيقة! لا يمكن لأحد أن يقول ما قاله وكما قاله، دون أن يعني ما يقول..

عضت شفتها بقسوة حتى ذاقت طعم الدم.. فكرت أنها تتصرف كمراهقة لا ثقة لها بنفسها بدل التفكير كامرأة تعرف قوة جمالها وشخصيتها، وركزت التفكير على ربطة عنقه التي تركها في الشقة.. لو كان ينوي الرحيل لأخذها معه.. ربما عاد إلى شقته لإحضار شيء ما، ولا شك أنها تسرعت بترك شقتها.. استقامت ثم قفلت راجعة من حيث أتت، من الممكن أن يكون قد عاد الآن. دخلت المبنى، وصعدت بالمصعد إلى طابقها.. وفيما كانت تتوجه إلى بابها خفق قلبها خفقات خوف، فتحت الباب فاستقبلها صمت رهيب.

حاولت رفع رأسها ولكن وجهها تورد خجلاً وخزياً.. ما أشدّ ما كانت غبية عندما صدقته!

رن جرس الهاتف فانتفضت، ولكن عندما التقطته مقطوعة النفس سمعت صوت ستان:

- مرحباً حلوتي.. كيف حالك؟

- بخير.

- نريد أنا وليزا أن نخبرك أننا أحببنا فتاك.

قالت ليزا عبر سماعة أخرى:

- كوني.. إنه لطيف وهو مثالي لك.. أنا معجبة بالرجل المهذب.. لهذا يظهر حسن تربيته، أليس كذلك؟

- أنا.. أجل.. أعتقد هذا.

تكلمت سولين بصوت مفعم بالبهجة الدافئة:

- لا أريد أن أقول لك: لقد قلت لك هذا.. لكنني لم أدهش حين أخبرنا البابا والماما أن زائفي كان.. بزورك بالأمس..

صمتت قليلاً. عندما لم تتلق الرد قالت:

- ألو؟ كوني.. أما زلت معي؟

أجابت وعيناها مغرورقتان بالدمع:

- أنا هنا.

جاء صوت مورغان:

- مرحباً أختي.. هل هناك أجراس زفاف قريبة؟

سحبت كوانتين نفساً عميقاً لمنع النحيب من التصاعد إلى حنجرتها.. وقالت: ليس بعد.

قالت سولين:

- لن يطول الوقت.. تعرفين ما أقوله دائماً.. كلما كانوا كباراً كلما كان سقوطهم أسهل!

أنهت كوانتين بعد جهد جهيد المكالمة بسرور كاد يهده بالانهيار. من حسن الحظ أن أفراد عائلتها سعداء بحيث فشلوا في التقاط أنّة اليأس في صوتها. عندما علقت السماعة، احتبت على الأريكة واضعة ركبتيها تحت ذقنها.. محتضنة ساقيها.. فيما كانت تكلم ليزا تين لها وجه

خداع كزفيار.. لقد قاومت طوال عمرها أي نسبة مع أمها لتثبت أنها ليست من النساء اللاتي يستطيع الرجل أن يسيطر عليهن.. لكن إلى أين أوصلتها استقلاليتها وقوتها؟ هل هي الآن أفضل من ليزا؟.. الرجل الذي أحبته تخلى عنها منتقماً منها لما فعلته به.

تدفقت الدموع على وجنتيها كسواقٍ صغيرة، وفقدت كل أثر للوقت.. رن جرس الهاتف عدة مرات طويلاً وبإلحاح، ولكنها تجاهلته.. لم تكن واثقة من قدرتها على تحمل المزيد من كلمات التهنئة التي ستذكرها عائلتها أو أصدقاؤها. في أعماقها جرح بليغ مؤلم جداً يجعلها تشهق.. الطريقة الوحيدة التي تخفف فيها عن نفسها الألم هي البقاء جالسة مغمضة العينين بشدة لئلا ترى شيئاً.

أخيراً، وبسبب الإرهاق، غفت على الأريكة فسمعت في منامها أصواتاً وضربات عنيفة متكررة وصوت رجل يصيح باسمها.. لكن ما أيقظها أخيراً كان دوياً شديداً في أذنها. كانت الأريكة قرب الجدار الملاصق لشقة السيد بوكر، وعندما فتحت عينيها أدركت أنه يضرب بعصاه الجدار الفاصل. جلست متسائلة عما الذي جعل الرجل العجوز هائجاً هكذا. فجأة سمعت الصوت مجدداً.. كان كزفيار خارج الباب يناديها بصوت مرتفع بحيث يكفي لإيقاظ المبنى كله.

هرعت إلى الباب تفتحه وراحت نظرتها المذهولة تستوعب الرجل الواقف بقلق أمامها. كان يرتدي الثياب التي غادر الشقة فيها ولكن الفرق بين من ذهب وبين من أتى كان واضحاً.. فحوله الآن ضمادة بيضاء وعلى خده كدمة سوداء وحول قدمه اليمنى رباط بلاستيكي وضمادة تلف ساقه العارية.. أما ما كان يسنده ليقف فعكازان من الألمنيوم.

سأل متعباً: «ألن تدعيني للدخول؟»

تنحت جانباً فتقدم ببطء وألم ظاهر.

- ماذا حدث؟

- حاولت إنقاذ كلب من سيارة كانت ستصدمه فنجا الكلب

ـ بعدما تركتني مباشرة؟

ـ بعد خمس دقائق.

خلع معطفه وجلس على الأريكة، أما هي فأسرعت تحضر له مسنداً لساقه المكسورة. ثم استند إلى الخلف بتعب ظاهر.

جثت على ركبتيها أمام مقعده تنتفض من الراحة وتتمزق بين سعادة عامرة بسبب عودته وبين قلقها على إصابته:

ـ كيف.. أعني.. من..

ـ أخذني السائق إلى المستشفى، وبقيت فيها حتى الآن.. بعدما استعدت وعي حاولت الاتصال بك، ولكنني لم أتلق رداً.

نظر إليها، ورأت كيف ترك الألم آثاره على وجهه.. فثمة خطوط تعب وقلق لم يسبق أن شاهدتها.. ولامس خدها بظاهر يده.. وقال بلطف:

ـ كنت تبكين؟

وضعت رأسها على ركبته.

ـ ظننت.. اعتقدت.. أنك تركتني.. كما فعل أبي..

صمتت إذ كانت الذكرى حية في رأسها.

قال وعيناه الزرقاوان مظلمتان:

ـ خشيت هذا.. ما إن استعدت وعيي حتى دفعت الممرضات إلى الجنون محاولاً الاتصال بك.. أرادوا إبقائي الليلة هناك.. لكنني لم أقبل البقاء.

همست: «سامحني أرجوك.. لم أثق بك».

شد خصلات شعرها:

ـ أحبك كوانتين بورنيت.. لا تنسي هذا أبداً.

رفعت بصرها إليه وعيناها الرماديتان مغرورقتان بالدموع:

ـ حتى ولو كنت صحفية؟

ابتسم: «لقد نسيت الأمر.. الله يعلم أنني ما كنت أريد أن أقع في حب صحفية تتجسس على الناس في مكاتبهم».

ـ كان عليّ أن أعرف من أنت، كنت قد وقعت في حبك.

ـ عرفت هذا فيما بعد.. ولكنني كنت أحمل كراهية للصحافة منذ زمن بعيد، حتى صعُب عليّ أن أنسى.

ـ بسبب أختك؟

نظر إليها بدهشة: «تعرفين بأمرها؟»

ـ أعرف فقط أنها انتحرت منذ سنوات.. أخبرني بذلك أحدهم.. ولم أقرأ شيئاً في الصحف.

أسند رأسه إلى الوراء، وراح يتذكر ما حدث بمرارة:

ـ أعتقد أننا كنا محظوظين لأن الصحافة لم تكن تجد أسرة ساندرز مهمة كثيراً لتهتم بالخبر يومذاك.. كنت مراهقاً وكانت ليليان في العشرين من عمرها.. كانت جميلة، شقراء، وكان حولها جو من الأسى المكبوت.. في ذلك الوقت ظننتها رومانسية أكثر من اللازم.. ولكن فيما بعد أدركت أنها تعاني من الكآبة.

تمتمت كوانتين وهي تتذكر لوحتها، لقد التقط كزفيار السوداوية التي كانت في أخته:

ـ فهمت.

ـ في السنة التي ذهبت فيها إلى الكلية، تورطت مع رجل..

ذكر لها اسماً جعلها تقفز ذهولاً.. أدركت أن أخته كانت تخرج مع أحد مشاهير العابثين في العالم، أمير ثري معروف بعبثه.. أصبح طاعناً في السن ولكنه ما زال يحيط نفسه بالشابات الجميلات ممن يستطعن الاستجابة إلى أذواقه المتهتكة. لا شك أنه كان في أوج عمره عندما التقت به ليليان.

همست: «يا إلهي!»

ـ أجل.. أغواها ثم أخذها معه.. تناولت الصحافة الخبر ولاحقتهما دونما رحمة.. كان معتاداً على الصحافة لكن ليليان لم تكن معتادة.. ولا شك أنها أحبته لتبقى معه.. فهو لم يتزوجها.. ولم يفقد الاهتمام بها حتى حملت وعادت إلى المنزل، نسيت الصحافة أنها موجودة

حين لم تعد تتصدر معه صفحات الأخبار الأولى وواجه أهلي امرأة لم تعد تشبه ابنتهم.. كانت تجول في المنزل كروح ضائعة.. لم تعد ترتدي ثياباً مرتبة أو تعتني بنفسها، وعانت من الأرق الشديد فطالما وجد أهلي دليلاً على أنها أمضت الليل بالتجول في الجوار.

ـ يا للمسكينة!

ـ أجل.. كانت تثير الشفقة.. ولقد ذعر والداي.. لكن لم يكن هناك ما يفعلانه لإيقافها.. وعندما قطعت شرايين معصمها، كانت مجرد جلد وعظم، وتبدو في الخمسين بدل العشرين. العزاء الوحيد الذي عزّى به الأطباء والدي هو أن طفلها الذي لم يولد، كان سيولد مشوهاً مقعداً لأنها كانت قد انقطعت عن الطعام فلم ينل الطفل حاجته من الغذاء.

جلسا حزينين مدة دقائق.. ثم سألت كوانتين:

ـ وهل تعتقد أن الصحافيين هم من تسببوا بموت أختك؟

ـ لنتهم سنوات طوالاً.. فلو تركوها وشأنها لتمكنت من تسوية كل مشاكل حبها وحلها. كنت أعرف أنها تخاف أن يفتضح أمرها.. شاهدتها مرة على التلفزيون خلال موجز للأنباء، تبكي وتطلب من المراسلين تركها وشأنها. لكنهم كانوا ذئاباً مسعورة، وأطبقوا عليها أكثر فأكثر.

رأت كوانتين أن لدى كزفيار تبريراً قوياً ليغضه الصحافة.. تعرف كيف توصل «الصحف الصفراء» أكثر الأشخاص توازناً إلى حافة الجنون.. وحالة أخته تثير الشفقة. قالت ببطء:

ـ أعتذر نيابة عنهم.. لكننا لسنا جميعاً هكذا.

ـ لا.. فقد جعلتني أدرك هذا، وساعتك لأنك صحفية.

ـ ما دمت ساعتني فلماذا لم تعترف بحبك؟

هز كتفيه: «لقد دفعتني إلى الجنون. عرفت أنني أحبك.. لكنني لم أعرف ما هي مشاعرك، لذا استخدمت كل وسيلة أعرفها للوصول إليك».

نظرت إليه مؤنبة:

ـ كاليوم الذي عانقتني فيه بذاك الشغف؟

تأوه:

ـ كان جحيماً مطبقاً أن أرسمك.. حاولت كبت مشاعري، لكنني كنت كلما نظرت إليك أشعر برغبة في ضمك بين ذراعي.. ثم حين حاولت في النهاية انقلبت إلى لوح ثلج.

ـ ظننتك أشفقت عليّ.. وهذا ما جعلني أغضب.

ـ أعتقد أنني أحسست بالشفقة.. لكنني كنت أحبك.. ألم يظهر عليّ هذا؟

هزت رأسها نفياً: «خلتك لا تريد مني إلا تحقيق مبتغاك.. ثم حين عرفت أنك اتصلت بثاليسا فيما بعد..»

نظر إليها بذهول: «كيف عرفت هذا؟»

ـ كانت المضيفة على الطائرة التي سافرت بها إلى نيويورك.

تنهد مخلاً يده في شعره:

ـ كنت غاضباً لأنك تجاوبت معي بشغف أولاً ثم تراجعت وكأنك لا تهتمين.. وتساءلت لماذا أضيع وقتي على امرأة عنيدة صعبة المنال، سرعان ما تنقلب من النجاوب الشغوف إلى الرفض المطلق، امرأة كادت تدفعني إلى قتلها.. فاتصلت بثاليسا.. كان نوعاً من الانتقام. ولقد خرجت معها فعلاً، إنما بلا جدوى لأنها لم تكن أنت.. إنها جميلة مثيرة وفي متناول اليد.. كنت في الماضي أنجذب إليها.. لكن منذ عرفتك.. انتهى الأمر.

لم تستطع كوانتين كبت ابتسامتها: عظيم!

ـ هل أنت من النوع الغيور؟

ـ جداً.. المس امرأة أخرى ولسوف...

ومررت يدها على عنقها بطريقة إجرامية.

مال إلى الأمام:

ـ أحبك وأنت غيورة!

سألت بخجل: «ماذا عنك؟ هل تغار؟»

ضحك: دعيني أضع الأمور في نصابها.. اضطررت إلى السؤال عن مدير مصرفك.

- مدير مصرفي؟

ثم تذكرت حديثها معه بعدما تسوقت في الدنمارك:

- لم تعتقد أن...؟

تنحنح: إنه رجل لطيف، أقرع، سمين، وأب لأربعة أولاد.

لفت ذراعيها حول خصره، تبتسم لنفسها:

- أوه.. كزفيار.. أنت أبله!

عاد يمسك خصلات شعرها بين أصابعه:

- أنا أبله فقط عندما يتعلق الأمر بك.

جلسا هكذا برضى بضعة دقائق.. ثم بدأت كوانتين بطرح سلسلة من أسئلة كانت تخطر ببالها منذ أشهر:

- هل خوفك من الصحافة هو الذي جعلك تحمل هويتين؟

- كنت أرسم دوماً مستخدماً اسم عائلة أمي كطريقة لإبعاد عملي عن متعتي الخاصة.. وعندما اشتهرت بدأ لي الأمر الطريقة المثلى للاختباء.. من الصعب إيجاد زائي ساندرز أما كزفيار ريفينك فيستحيل إيجاده لأنه غير موجود.. ومع ذلك كاد بعض الصحافيين يصلون إلى حقيقة هويتي ولكن وكيلي وأمي نجحا كثيراً في إبعادهم.

- بعد كل تلك السنوات من الاختباء.. لماذا سمحت لعرّافة تتكلم كثيراً بالاقتراب منك؟

ضحك كزفيار:

- لأنها كانت جميلة، غامضة، ونظرت إلى قلبي بطريقة لم يسبقها إليها أحد.. لم أحب قط. وكنت بدأت أتساءل عما إذا كان العيب في.. أعترف أنني كنت غاضباً بسبب تلك الحقائق التي قلتها عني.. لكنني ذهلت أيضاً، وفي اليوم التالي عدت أبحث عنك لكنك كنت قد رحلت.. وعندما عرفت أنك إحدى أولئك الصحافيين الذين أكرههم، قررت أن أنساك.. ثم قرأت مقالة السيرك، وعرفت أن عليّ مقابلتك..

لم أكن أريد أن تعرفي هويتي الحقيقية، وقررت الاختباء خلف اسم كزفيار ريفينك. وكان هذا درعاً وفخاً في الوقت ذاته نصبته للإيقاع بك.

تنهدت كوانتين: ظننتك تكرهني.. في بيت سولين، تصرفت وكأنك تتعامل مع مرض اجتماعي نادر.

ضحك: لو تحرشت بك، هل كنت ستقبلين بأن أرسمك؟

- وهل كان رسمي مهماً لك؟

- أنا فنان.. وشعرت أن رسمك سيساعدني على التعبير عن مشاعري. لم أكن واثقاً منك يومذاك، وكان رسمك على القماش الطريقة الوحيدة التي تمكنني من امتلاكك.

- لكنك اتهمتني أنني تمثال جامد!

- كنت قد افتعلت حاجزاً بيننا.. لم أرد أن أرسم فقط المرأة الخارجية الجميلة، بل امرأة مفعمة بالحب تكون لي.. لكنك كنت باردة.. ولم أفكر أنني سأنفذ إلى نفسك، مع أنني ظننت بعد كلامك عن أبيك..

شبكت أصابعها في أصابعه، تحب دفء يديه وقوتهما.. وقالت بصوت منخفض:

- جعلتني أواجه الحقيقة.. فقد كبّت كل تلك الذكريات.. ثم أمضيت سنوات أبعد الرجال عني لأنني كنت خائفة منهم. كنت أعرف أنني باردة ولكنني لم أستطع فهم السبب.. ولم أدرك أنني من الداخل أؤمن بأن الرجل الذي سأحب سيؤذيني إلا بعد أن تكلمت عن أبي.

- لن أؤذيك أبداً.. أبداً.

ابتسمت له: كان يجب أن أصغي إلى أفراد عائلتي الذين كانوا من أشد المعجبين بك.. وكانوا جميعاً يهتفون لك.

قال: لاحظت هذا.. كادت زوجة أخيك تلعب دور «الخاطبة».

صاحت: وستان.. كان يجب أن تسمعه وهو يشجعني على حبك

- يعرف الجميع أننا لبعضنا بعضاً.. حتى مدام أزمبرالد.

ـ مدام أزمير الد؟

ـ لقد قالت: «سيكون هناك امرأة.. وستكون هي التي تبحث عنها..»

اعترفت مكشّرة:

ـ لم تكن مدام أزمير الد تعرف متى ستتوقف عن العمل.

شدها عن الأرض لتجلس معه على الأريكة، وعقد ذراعيه حولها ليدفن وجهه في شعرها.. تمتم:

ـ أنا مسرور لأنها لم تعرف متى تتوقف.. فنبوءة الرغبة تحققت.

* * *

www.rewity.com/vp/
بلا عنوان
قراءة ممتعة للجميع

العرّافة

– لقد مرّ كثير من النساء في حياتك... ولكن ما من واحدة منهن لمست شغاف قلبك... فقلبك ما زال غرفة فارغة خالية من الحب... وهذا ما يقلقك!

– وما الحل عندك ايتها العرّافة؟

– سيكون هناك امرأة... وستكون من تبحث عنها!

بعدما تركت كزاڤيار ريڤنيك مذهولاً، خلعت كوانتين قناع التنكر ورحلت، فهي صحافية ولم تتعامل قطّ مع الخيال والعواطف... لكن كزاڤيار كان يعرف أين يبحث عن امرأة النبوءة، وعندما وجدها جاء دوره ليرسم لها مستقبلها: سيذيب جبل الجليد الذي يغطيها، وستعود بين يديه امرأة ذات قلب وعواطف، ثم يرميها إلى النسيان كما فعل بالأخريات.